دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	النجاة في ضوء القرآن الكريم : دراسة موضوعية
المؤلف الرئيسي:	الجربوع، عبد العزيز بن محمد عبد الرحمن
مؤلفين آخرين:	العيدي، محمد بن عبد االله بن محمد(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2012
موقع:	بريدة
الصفحات:	1 - 877
رقم MD:	613050
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة القصيم
الكلية:	كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدولة:	السعودية
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	القرآن الكريم، النجاة، التفسير الموضوعي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/613050

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الفصل الخامس: ضوابط النجاة

(وفيه مبحثان):

المبحث الأول: ضوابط النجاة الصحيحة

المبحث الثاني: ضوابط النجاة غير الصحيحة.

المبحث الأول: ضوابط النجاة الصحيحة

١. النظر في عواقب الأشياء وعدم الاغترار ببداياتها.

٢. التنبه للوقت.

٣. تقديم ما حقه التقديم.

٤. الالتزام بمكارم الأخلاق.

٥. الاعتبار بالحقائق والمسميات لا بالمظاهر والأسماء فقط.

٦. عصمة مصدر التلقي أو إرجاعه إلى ما يحقق عصمته.

٧. أهلية من تطلب منه النجاة لتحقيقها.

٨. سلامة الغاية:

١. تمهيد: بيان المراد بالغاية ومصدر ضوابطها.

٢. سلامتها من الوهم.

٣. سلامتها من الإثم.

٩. صحة الوسيلة:

- أن تكون الوسيلة مباحة.
- اعتقاد أنها مجرد سبب.

١ - النظر في عواقب الأشياء وعدم الاغترار ببداياتها:

فهذا ضابط لكل أسباب النجاة الصحيحة، فإن النظر فيها يكون للنهايات والغايات والعواقب لا للبدايات الآنية والحال الحاضرة، وهذه حال أولي الألباب، فحالهم بخلاف حال أهل الغرور: يغمضون أعينهم عن العواقب ويمشون الحال، فطبعهم الاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها، وهذا يؤول بصاحبه إلى الهلاك(١). وهذا وإن كان ضابطاً لكل أسباب النجاة الصحيحة إلا أنه ظهوره في بعض الأسباب واضح؛ مثل: الصبر(٢)، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن لها بدايات مُرّة كريهة، ولكن الله أمر المؤمنين أن ينظروا إلى عواقب هذه الأمور لا إلى بداياتها فنظروا، فكان ذلك سبب نجاتهم.

فالصبر؛ قد عرف الناس كلهم مرارته، وعرف العقلاء حسن عواقبه، فأمر الصبر كما قال النبي -ﷺ- لابن عباس-رضي الله عنهما-:"وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ"(٣). وبذلك نطق الأدباء والشعراء، وقد قيل إن "أجمع كلمة قيلت في الصبر: الصبر مطية النصر"(٤)، وقال علي بن أبي طالب-ﷺ-"بعد الصبر ينزل النصر"(٥). وقال المقري المغربي:

صبَّرْت نفساً لعقبى الصبر حامدة ... والصبر مذ كان محمود عواقبه(٦)

---

(١) انظر:إغاثة اللهفان١/٨٢.

(٢) فالأمر كما قال الشاعر:

(والصبر في كل موطن حسن ... حسبك من حسنه عواقبه)

انظر: هذه الرسالة؛ فصل: أسباب النجاة؛مبحث أسباب النجاة الحقيقية؛ ص٤٥٤.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسند ابن عباس من مسنده١/٣٠٧حديث٢٨٠٤. قال شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند:صحيح.

(٤) انظر: نهاية الأرب٣/٢١٢.

(٥) المرجع السابق٢٠/٧٥.

(٦) نفح الطيب للمقري المغربي٦/٧٣.

وقال بهاء الدين زهير:

صبرتَ إلى أنْ أنزلَ اللهُ نصرهُ ** لذلكَ قد أحمَدْتَ عاقبَةَ الصّبرِ[١]

وقال البحتري[٢]:

أما في نبيّ الله يوسفَ أسوة *** لمثلك محبوساً على الجور والإفكِ

أقامَ جميلَ الصّبرِ في السجنِ بُرْهَةً ** فآلَ بِهِ الصّبرُ الجميلُ إلى المُلْكِ[٣] .

أما الجهاد؛ فقد بيّن الله مرارة بدايته في قوله سبحانه: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ البقرة: ٢١٦، وبيّن حسن عاقبته وأنه تحقق به النجاة بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الصف: ١٠ – ١١.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قريبٌ من الجهاد في ذلك، وقد بيّن-الله أنه سيجعل العاقبة لمن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إذا انتصروا؛ فقال سبحانه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ الحج: ٤٠ – ٤١.

وليس النظر في العواقب خاصٌ بهذه الأسباب من أسباب النجاة الحقيقية، ولكنه عام في أعمال الإيمان كلِها، ولكنه في هذه الأسباب أظهر، فمثلاً: التقوى، إنما حثَّ الله عليها لعواقبها الحميدة، وقد ذكر الله ذلك في كتابه؛ فقال لرسوله -ﷺ-: ﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ

---

(١) ديوان بهاء الدين زهير ص٨١.

(٢) البحتري(٢٠٦ – ٢٨٤ هـ) الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، أبو عبادة: شاعر كبير، يقال لشعره "سلاسل الذهب". كان يُقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري. اتصل بعددٍ من الخلفاء. ولد وتوفي بمنبج (بين حلب والفرات). [انظر: الأعلام٨/١٢١، ومعجم المؤلفين١٣/١٧٠].

(٣) ديوان البحتري ٢/١٥٥.

﴿٤٩﴾ ﴾ هود: ٤٩، وقال سبحانه: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ طه: ١٣٢، وقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ القصص: ٨٣، وقال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٢٨. وهكذا سائر أعمال الإيمان، أما من آثر الدنيا فلن يعمل من أعمال الإيمان شيئاً، لأنه يريد اللذة العاجلة.

٢- التنبه للوقت:

فأسباب النجاة الحقيقية كلها يجمعها هذا الضابط، فإن الشيء لابد أن يفعل في وقته حتى يتحقق نفعه، والشيء إذا فات عن وقته لا قيمة له. وأظهر ما يكون هذا الضابط في التوبة، والإيمان، والدعاء؛ فقد نص القرآن على أنه لا تنفع إذا فاتت أوقاتها-وقد سبق بيان ذلك-[١].

٣- تقديم ما حقه التقديم:

الحقائق إذا تعارضت أو تزاحمت فلابد من تقديم أحدها، والأمر الشرعي والمنطق العقلي يوجب تقديم أحقها بالتقديم. وهذا هو أحد ضوابط النجاة الحقيقية، وقد مر التعرض لذلك عند ذكر أسبابها، وأظهر ما يكون ذلك في الطاعة، فقد سبق أنه كلما قدم طاعة الله ورسوله- ﷺ- على طاعة سواهما كان نصيبه من النجاة أعظم[٢]، وكذلك الخوف، فتقديم الخوف من الله على الخوف من غيره أعظم لتحقيق النجاة[٣]، وكذلك التحكيم، فمن أسباب النجاة الحقيقية تحكيم الله ورسوله-ﷺ-وعدم الرضا بأي حُكم يعارض الحكم الشرعي[٤]. قال ابن القيم:"كل من قدم طاعة أحد على طاعة الله ورسوله -ﷺ-، أو قول أحد على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحد على معاملة الله؛ فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وإن قاله بلسانه فهو كذب منه وإخبار بخلاف ما هو عليه، وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله فذلك المقدم عنده أحب إليه من الله ورسوله"[٥].

وبهذا يتبين أن تقديم ما حقه التقديم ضابط عامٌ في النجاة الصحيحة.

٤- الالتزام بمكارم الأخلاق:

---

(١) انظر: فصل: أسباب النجاة؛ مبحث أسباب النجاة الوهمية؛ ص٤٧٧، وص٥٢٥.

(٢) أنظر: فصل: أسباب النجاة؛ مبحث أسباب النجاة الحقيقية في هذه الرسالة ص٤٠٨.

(٣) أنظر: فصل: أسباب النجاة؛ مبحث أسباب النجاة الحقيقية في هذه الرسالة ص٤٥٩.

(٤) أنظر: فصل: أسباب النجاة؛ مبحث أسباب النجاة الحقيقية في هذه الرسالة ص٤١١.

(٥) مدارج السالكين١/١٠٠.

هذا ضابط جامع لكل أسباب النجاة الحقيقية، فكلها من أجل الأعمال وأشرفها، الإخلاص[١]، والشكر[٢]، والتقوى[٣]، والصبر[٤]، والجهاد[٥]، وغيرها من أسباب النجاة الحقيقية. فإن مكارم الأخلاق تكون في معاملة الله، وتكون في معاملة الخلق؛ فتوحيد الله، والرغبة إليه، والرجاء له، والتوكل عليه من مكارم الأخلاق، والشرك به، والرغبة إلى غيره، ومحبة غيره كمحبته من مساوئ الأخلاق. ومن مكارم الأخلاق في معاملة الخلق: الإحسان إليهم، وعدم إيذائهم، ومن مساوئ الأخلاق في معاملتهم: إيذائهم بالسؤال والشحاذة[٦].

٥- الاعتبار بالحقائق والمسميات لا بالمظاهر والأسماء فقط

وهذا ضابط جامع لكل أسباب النجاة الحقيقية، فإن أسماءها ومظاهرها معتبرة، لكن الاعتبار الأعظم بحقائقها ومسمياتها. فالإيمان، والتقوى، والخشوع، وغيرها من أسباب النجاة الصحيحة، لا يكفي فيها مجرد مظاهرها، فإن من قام بمظاهر هذه الأسماء، دون أن يقوم بحقائقها؛ كان منافقاً، ولم يحصل منها على ما يراد بها من النجاة والفوز. "إن ما حرم الله تعالى ورسوله-ﷺ- من المحرمات إنما هو حمية لحفظ صحة القلب وقوة الإيمان، كما أن ما يمنع منه الطبيب مما يضر المريض حمية له؛ فإذا احتال المريض أو الطبيب على تناول ذلك المؤذي بتغيير صورته مع بقاء حقيقته وطبعه، أو تغيير اسمه مع بقاء مسماه، ازداد المريض بتناوله مرضا إلى مرضه وترامى به إلى الهلاك ولم ينفعه تغير صورته، ولا تبدل اسمه"[٧]، فالمطلوب في الإيمان؛ حقيقة الإيمان الذي سماه الله إيماناً، والمأمور به في التقوى؛ حقيقة التقوى التي سُميت لأجلها تقوى، وهكذا كل أسباب النجاة الحقيقية.

---

(١) أنظر: فصل أسباب النجاة؛ مبحث أسباب النجاة الحقيقية؛ في هذه الرسالة ص٣٨٩.

(٢) أنظر: فصل أسباب النجاة؛ مبحث أسباب النجاة الحقيقية؛ في هذه الرسالة ص٤٠٦.

(٣) أنظر: فصل أسباب النجاة؛ مبحث أسباب النجاة الحقيقية؛ في هذه الرسالة ص٣٩٨.

(٤) أنظر: فصل أسباب النجاة؛ مبحث أسباب النجاة الحقيقية؛ في هذه الرسالة ص٤٥٣.

(٥) أنظر: فصل أسباب النجاة؛ مبحث أسباب النجاة الحقيقية؛ في هذه الرسالة ص٤٤٧.

(٦) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية١/١٩٥.

(٧) إغاثة اللهفان١/ ٣٥٣.

٦- عصمة مصدر التلقي أو إرجاعه إلى ما يحقق عصمته:

فمصدر تلقي أي سبب للنجاة-سواء كان عملاً أو اعتقاداً- القرآن والسنة؛ وهما الوحي الإلهي[١] الذي لا يمكن تطرق الخطأ إليه بحال من الأحوال.

وهناك مصادر أخرى-غير معصومة- أمر الوحي باتباعها: كالعلماء، والولاة، والوالدين، والناصحين. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ النساء: ٥٩ ، وأولي الأمر: هم الولاة[٢] والعلماء[٣]. وأمر الله بطاعة الوالدين؛ فقال: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا ﴾ الأحقاف: ١٥، وأبرز مظاهر الإحسان: الطاعة. وأمر بطاعة الناصحين وبيّن أنه طريق للنجاة، وذلك فيما قصه الله تعالى من قصة مؤمن آل فرعون؛ حيث قال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ غافر: ٣٨، إلى قوله: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ غافر: ٤١، فبيّن أن في طاعة الناصحين المتبعين لرسل الله النجاة في الدنيا والآخرة. ولما كانت هذه المصادر غير معصومة أمر الله بإرجاعها إلى الوحي لئلا تزيغ بالإنسان عن طريق الحق فيهلك مع الهالكين؛ فقال الله سبحانه عند الأمر بطاعة أولي الأمر من العلماء والأمراء: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ النساء: ٥٩، وفي طاعة الوالدين قال سبحانه: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ العنكبوت:٨. وقال سبحانه: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا ﴾ لقمان: ١٥. وإرجاع هذه المصادر

---

(١) فالقرآن وحي؛ قال الله سبحانه: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} (يوسف:٣)، وكذلك السنة وحي؛ كما قال تعالى-في وصف رسوله-ﷺ-: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} (يوسف:٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري٨ /٤٩٧.

(٣) انظر: المرجع السابق٨/٤٩٩.

إلى ما يحقق عصمتها ليس تبرعاً من قِبَل المكلَّف، بل هو أمرٌ لازم متحتم، فقد بيّن القرآن أن هذه المصادر إذا لم تضبط بطاعة الله، فإنها لا ينتفي عنها تحقيقها النجاة فقط، بل تكون حينها موجبة للهلاك ؛ قال الله تعالى-فيمن أطاعوا الزعماء والعلماء في غير طاعة الله-:﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾ الأحزاب: ٦٦ – ٦٧، قال ابن كثير:"أي: اتبعنا السادة: وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل لأجلهم، واعتقدنا أن عندهم شيئا، وأنهم على شيء؛ فإذا هم ليسوا على شيء"(١)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية-عن الآية-"فيها نصيب لكل من اتبع أحدا من الرؤوس فيما يخالف الكتاب والسنة"(٢). وبيّن الله تعالى أن إتباع الآباء كان سبباً لشرك طوائف من المشركين، وأن هذا لا يعذرهم عنده؛ فقال:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ المائدة: ١٠٤، ونحوها من الآيات.

وبهذا يتبين أن من ضوابط أسباب النجاة الحقيقية التي تجمع جميع مفرداتها: عصمة مصدرها أو رجوعه إلى ما يحقق عصمته.

---

(١) تفسير ابن كثير٦/٤٨٤.

(٢) درء التعارض٥/٣١٨.

٧- أهلية من تطلب منه النجاة لتحقيقها:

فالنجاة إنما تُطلب من الله تعالى، فهو أهلٌ لتحقيقها مُطلقاً، وهو قادر على ذلك قطعاً، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون. فأما غير الله تعالى فقد لا يكون قادراً، وقد لا يكون مريداً لذلك، وقد لا يرحم، وقد لا يسمع، فلا تتحقق الأهلية فيمن تطلب منه النجاة غير الله إلا إذا توفرت الشروط، وانتفت الموانع. ويمكن وضع قواعد لذلك من بعض الآيات القرآنية الدالة عليه، والتي أوضحها علماء عقيدة السلف. **وتتمثل هذه القواعد بما يلي:**

القاعدة الأولى: القدرة الحسية، تحقيقاً أو ظناً وتقديراً

فيصح أن يطلب مخلوق من مخلوقٍ ما يقدر عليه حساً. **والقدرة الحسية قد تكون محققة،** مثل غريق يطلب ممن يعرف السباحة أن ينقذه من الغرق، **وقد تكون مظنونة،** مثلما لو رأى الغريق إنساناً وطلب منه إنقاذه من الغرق ظناً منه أن ذلك الإنسان يعرف السباحة. فإن لم تتوفر في المستغاث به القدرة الحسية، فإن إعطاءه قدرة خفية غير محسوسة[1] شركٌ أكبر، وليس عند أي مخلوق -مهما كان- قدرة خفية غير محسوسة؛ يُسأل بسببها النصرة[2]، وإنما يُسأل بما يدركه الحس من قدرته لا أكثر، والاستغاثة به"تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال، أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه، كقولهم: يا لزيد، يا للمسلمين، بحسب الأفعال الظاهرة"[3]، وقد جاء القرآن ببيان ذلك في آيات عظيمة، منها: قول الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ الأنفال: ٧٢ ، فأباح لأولئك المؤمنين الاستنصار بإخوانهم ليعينوهم بما هو داخل في قدرتهم. وقوله سبحانه-في قصة موسى عليه السلام-:﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ القصص: ١٥، ولم ينكر الشرع تلك الاستغاثة بالمخلوق،

---

(١) انظر: مبحث: ضوابط النجاة غير الصحيحة، من هذه الرسالة، ص٦٦٦.

(٢) الملائكة مَخْفيون، وقدراتهم خفية، والجن مخفيون؛ وقدراتهم خفية؛ ومِن الشرك الأكبر استغاثة الإنسان بهم بسبب ما يعلمه من القدرات التي لهم.

(٣) الدرر السنية١٢/٩٨.

لأنها استغاثة به فيما يقدر عليه حساً. وقوله سبحانه:﴿ وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الأعراف: ١٣٤ ، فطلبوا من موسى ما يستطيعه حساً وهو دعاء الله أن يكشف الضر، وأقرّهم على هذا، ولم يقل : إن هذا هو الشرك الذي جئت أنهاكم عنه. وقال الله تعالى:﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ﴾ آل عمران: ١٦٦ – ١٦٧، فبيّن الله سبحانه أن المؤمنين طلبوا ممن ظنوهم مؤمنين ما يقدرون عليه حساً، وهو المقاتلة، أو المدافعة، قال الرازي: "يعني إن كان في قلبكم حب الدين والإسلام فقاتلوا للدين والإسلام، أو ادفعوا عنا العدو بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا معنا؛ لأن الكثرة أحد أسباب الهيبة"(١).

وبهذا يتبيّن أن من قواعد أهلية من تُطْلب منه النجاة غير الله: قدرة المستغاث به قدرة حسية ظناً أو قطعاً.

القاعدة الثانية:أن يكون حياً يُدرك:

فلابد من التأكد من هذا عند طلب النجاة من غير الله، وهذا لو لم يدل عليه الشرع، لكان العقل كافياً في الدلالة عليه، فالميت وإن كان قادراً يوم كان حياً فإن قدرته انقطعت بموته، وبالتالي فطلب شيء منه بعد وفاته يعدّ طلباً لما لا يقدر عليه، "فمن دعا ميتاً، أو غائباً؛ فقال: يا سيدي فلان؛ أغثني، أو انصرني، أو ارحمني، أو اكشف عني شدتي، ونحو ذلك؛ فهو كافر مشرك، يستتاب فإن تاب وإلا قتل، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء"(٢)، و"استغاثة

(١) مفاتيح الغيب٩/٦٩، وانظر: اللباب في علوم الكتاب٦/٤١.

(٢) الدرر السنية١١/١١

الحي بالحي، إنما هي بدعائه وشفاعته، وأما الميت والغائب[١] فلا يجوز أن يستغاث به، وكذلك الحي فيما لا يقدر عليه إلا الله، وأهل الإشراك ليس معهم إلا الجهل والهوى، وعوائد نشأوا عليها بلا برهان"[٢]. وقد بيّن الله في كتابه أن الميت لا يصلح أن يطلب منه شيئاً حين عاب على المشركين دعاءهم أمواتاً فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ النحل: ٢٠ – ٢١، والطلب من الميت سيكون قطعاً لما لا يقدر عليه حساً، فهذا تأليه له؛ لأن في الطلب منه إعطاؤه قدرة خفية غير محسوسة؛ يسأل بها[٣]، وهذه لا تكون إلا لرب العالمين. وإن من أنواع الشرك الأكبر:"طلب الحوائج من الموتى، والاستعانة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم؛ فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، فضلا لمن استغاث به، أو سأله أن يشفع له إلى الله"[٤].

ومما يدل على هذا الضابط –أيضاً– قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ النساء: ٦٤، فإن الصحابة –ﷺ– كانوا يطلبون من الرسول –ﷺ– أن يستغفر لهم يوم كان حياً، فلما مات لم يفعلوا ذلك؛ لعلمهم القاطع بأن هذا من الشرك الذي جاء –ﷺ– للتحذير منه[٥]، "وقد اتفق

---

(١) المقصود بالغائب؛ من لا يُدرك حساً ما يُطلب منه؛ إما إن أمكن إيصال ذلك إليه بنحو إتصال أو مراسلة فليس مقصوداً هنا.

(٢) المرجع السابق١١/٢٠٣.

(٣) الملائكة مَخْفيون، وقدراتهم خفية، والجن مخفيون؛ وقدراتهم خفية؛ ومِن الشرك الأكبر استغاثة الإنسان بهم بسبب ما يعلمه من القدرات التي لهم.

(٤) المرجع السابق١٠/١٧٢.

(٥) انظر: الأدلة الآتية من السنة.

الصحابة والتابعون لهم بإحسان، على أن النبي-ﷺ- لا يسأل بعد موته؛ لا استغفارا، ولا دعاء، ولا غيرهما"[١].

هذا الضابط في طلب النجاة من غير الله قد سار عليه الصحابة-ﷺ-والتابعون لهم بإحسان.فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ-ﷺ-، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ-ﷺ-كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ-ﷺ-[٢]، فَقَالَ:"اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا" قَالَ: فَيُسْقَوْنَ"[٣]، فهم هنا لما مات "لم يأتوا إلى قبره-ﷺ- يستسقون به، كما كانوا يستسقون به في حياته، واستسقوا بعمه العباس"[٤]؛ لأنه كان حياً، "وَمَا كَانُوا يَسْتَسْقُونَ بِالنبي-ﷺ-بَعْدَ مَوْتِهِ، وَلَا فِي مَغِيبِهِ، وَلَا عِنْدَ قَبْرِهِ، وَلَا عِنْدَ قَبْرِ غَيْرِهِ"[٥]، و"لو جاز أن يتوسل عمر والصحابة بالنبي-ﷺ-بعد وفاته، لما صلح منهم أن يعدلوا عن النبي-ﷺ-إلى العباس ﷺ؛ فلما عدلوا عنه إلى العباس عُلِم أن التوسل بالنبي-ﷺ- بعد وفاته لا يجوز في دينهم، وصار هذا إجماعا منهم"[٦]. و" قحطت السماء في عهد معاوية-ﷺ-[٧]؛ فخرج هو

---

(١) الدرر السنية٢/١٩٣.

(٢) العباس بن عبد المطلب(٥٤قبل الهجرة- ٣٢هـ) بن عبد المطلب بن هاشم،(أبو الفضل)، عم النبي-ﷺ- وصنو أبيه، أبو الخلفاء العباسيين، مدحه النبي-ﷺ-حيث ثبت عنه قوله:"هذا العباس عم نبيكم، أجود قريش كفاً، وأوصلها"، وكان جهوري الصوت؛ يسمع صوته من ثمانية أميال، وأبلى بلاء حسناً يوم حنين. وكان النبي-ﷺ-يرى له ما يرى الولد لوالده، ويبر قسمه، ودعى له ولأولاده دعوات كثيرة: بالمغفرة، وبالنجاة من النار، وبأن يخلفه في ولده، وعموماً كان-ﷺ-يجله ويكرمه، وكذلك كان الخلفاء الراشدون يفعلون معه بعد النبي-ﷺ-، وكان عمر-ﷺ-يستسقي به عند القحط فيسقون.[انظر:سير أعلام النبلاء٢/ ٨٩، وشذرات الذهب١/٣٨].

(٣) أخرجه البخاري١/٣٤٢حديث(٩٦٤)، كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء.

(٤) الدرر السنية٥/١٦٣.

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية٢٧/٨٦.

(٦) الدرر السنية١١/١٤٤.

(٧) معاوية بن أبي سفيان(٢٠ ق هـ - ٦٠ هـ) ابن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي الأموي: مؤسس الدولة الأموية، وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار، وأحد العظماء الفاتحين، بلغت فتوحاته البلاد الأوربية، وهو أول من ركب بحر الروم من العرب غازيا. كان فصيحاً حليما وقورا. أسلم يوم الفتح

وأهل دمشق يستسقون، فلما قعد معاوية-ﷺ-على المنبر قال: أين يزيد بن الأسود الجرشي[١]- وليس الحرشي[٢]-؟ فناداه الناس! فأقبل يتخطى الناس، فأمره معاوية فصعد على المنبر فقعد عند رجليه، فقال معاوية: اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا، اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بيزيد بن الأسود الجرشي، يا يزيد ارفع يديك إلى الله! فرفع يديه، ورفع الناس أيديهم، فما كان أوشك أن ثارت سحابة في الغرب كأنها ترس، وهبت لها ريح فسقتنا حتى كاد الناس أن لا يبلغوا منازلهم"[٣].

فعُلِم بهذه التصرفات من الصحابة-ﷺ- أن التوسل بالنبي-ﷺ- بعد وفاته، فضلاً عن غيره؛ لا يجوز في دينهم، وصار هذا إجماعا منهم[٤].

والغائب بمنزلة الميت في عدم سماع ما يطلب منه إلا إن كان هناك من يُوصل إليه الخبر، فإذا لم يكن كذلك فإن اعتقاد أن له قدرة خفية غير محسوسة يَعْلم بها حاجات من يستغيثون به تأليه له، وهذا شركٌ أكبر مخرجٌ من الإسلام.

(سنة ٨ هـ) فجعله رسول الله -ﷺ- في كتاب الوحي. ولاه أبو بكر، وعمر، وعثمان-ﷺ-قيادة بعض الجيوش، ثم ولوه على بعض بلاد الشام، وفي نهاية الأمر جمع له عثمان-ﷺ ولاية الديار الشامية كلها، وجعل ولاة أمصارها تابعين له. ولما قتل عثمان ونشبت الفتنة بسبب ذلك، كان معاوية وبعض الصحابة-ﷺ- في مقابلة علي-ﷺ- فاتخذ الرافضة ذلك وسيلة لشتمه ولعنه، والنيل منه، وطمس فضائله، التي عرفها سيد شباب أهل الجنة -الحسن بن علي-رضي الله عنهما- حين سلم الخلافة لمعاوية -ﷺ-، بعد مقتل علي سنة ٤١ هـ.

(١) يزيد بن الأسود الجرشي(....-٧١هـ)، (أبو الأسود)، تابعي، أدرك الجاهلية، وأسلم في عهد النبي-ﷺ-ولم يلقه-على الراجح-، وكان زاهداً، بكاءً، عابداً، له كرامات، كان أهل الشام يستسقون به عند القحط فيسقون، فكَرِه الشهرة التي حصلت له بذلك. سكن قرية قرب دمشق، إلا أنه كان يصلي الصلوات في جامع دمشق لا تفوته صلاة.[انظر:تاريخ دمشق٦٥/١٠٧، والبداية والنهاية٨/٣٥٦، والإصابة٨/٦٩٧].

(٢) يزيد بن الأسود؛ جرشي، وليس حرشي. (بالجيم) هذا هو الصواب، وفي بعض المصادر: الحرشي(بالحاء)، وهو خطأ.[انظر: المؤتلف والمختلف للدار قطني٢/٩٤٥].

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق٦٥/١١٢، قال الألباني:صحيح.[التوسل:١/٤١].

(٤) انظر: الدرر السنية١١/١٤٤.

٨- سلامة الغاية:

- **تمهيد.**
- **سلامتها من الوهم.**
- **سلامتها من الإثم.**

تمهيد: بيان المراد بالغاية ومصدر ضوابطها:

المقصود بالغاية هنا: الأمر الذي يُسْعى للنجاة منه.

إن هناك ضابط عامٌ مستخلص من آياتٍ قرآنية وردت في ذم أو مدح أنواع من الغايات التي يراد النجاة منها، فإن قارئ القرآن يجد أن الله تعالى مدح من يسعى للنجاة من النار، فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ الفرقان: ٦٥، ومدح الذين يريدون النجاة من شر يوم القيامة، وذكر قولهم في معرض الثناء عليهم؛ فقال: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ ﴾ الإنسان: ١٠ - ١١ ومرَّ في مبحث أنواع النجاة، أنواعٌ كثيرة من النجاة المطلوبة شرعاً، وعقلاً[1]. لكن نجد بمقابل ذلك أنواعاً من النجاة قد ذُم طالبيها، ومن تأملها وجد أنهم ذموا لفساد الغاية، فهم أرادوا النجاة مما توهموا أنه مصيبة وهو في الواقع نعمة، أو أنهم أرادوا النجاة من أشياء يطلب شرعاً السعي في تحصيلها لا السعي في النجاة منها. فيستنتج من ذلك ضابط لكل ما يراد النجاة منه، وهو سلامته من الوهم والإثم.

---

(١) انظر: فصل أنواع النجاة في هذه الرسالة ص١١٨.

سلامتها من الوهم:

سلامة الغاية من الوهم؛ بأن يكون ما تُطْلَب منه النجاة مصيبة حقيقية لا متوهمة.

قال الله تعالى-في شأن سبأ[1]-: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟

(١) لورود اسم سبأ في القرآن الكريم اضطر المفسرون إلى التقاط ما ورد عنهم من قصص وحكايات[وإن كانوا لا يجدون مادة يعتمدون عليها]، لكن يمكن أن يقال: سبأ: قبيلة سكنت اليمن، تنسب إلى جدها: سبأ ين يشجب بن يعرب بن قحطان، واسمه الحقيقي-على ما قال الإخباريون-"عبد شمس"، ولُقِّب بسبأ؛ لأنه أول من سن السبي من ملوك العرب، وأول من أدخل السبايا لليمن. ومن أولاده قبائل كثيرة انتشرت في كل مكان من جزيرة العرب، قبل الإسلام و بعده، وليس في النصوص العربية الجنوبية شيء عن نسب سبأ، وعن هويته، وليس فيها شيء عن اسمه، أو عن لقبه المزعوم، وكل ما ورد فيها أن سبأ اسم شعب، وقد ورد ذكر السبئيين في التوراة، وفي الكتب اليونانية، واللاتينية، وفي الكتابات الآشورية.

لُقِّب حكام سبأ في اللغة السبئية بلقب:"مكَرِّب" ومعناه قريب من معنى "مُقَرِّب" في لهجتنا، وتدل اللفظة على التقريب من الآلهة، فكان "المكرب" هو مقرِّب، أو وسيط بين الآلهة والناس. وقد كان هؤلاء "المكربون" في الواقع كهاناً، وكانت نهاية حكمهم في حوالي السنة(٦٥٠ق.م)، ثم استبدل لقب: مكرِّب؛ بلقب:"ملك"، وانتهى بهذا التغيير دور المكربين. وقد قص القرآن الكريم قصة زيارة ملكة "سبأ" لسليمان دون أن يذكر اسم الملكة، غير أن المفسرين، والمؤرخين، وأهل الأخبار؛ ذكروا أنها: "بلقيس"، وأنها من بنات التبابعة، والذي ورد ذكره في القرآن الكريم أن "الهدهد" هوالذي نقل نبأ ملكة سبأ إلى سليمان.

وأشتهر عن سبأ بناؤهم لسد مأرب؛ وقد ذهب بعض الباحثين إلى إن المكرب "سمه علي ينف" والمكرب "يثع أمر بين" كانا المؤسسين الأصليين لسدّ مأرب. ويُرْجِعون زمانهما إلى القرن السابع قبل الميلاد. وقد استمر من جاء بعدهما في إصلاحه، وفي إضافة زيادات إليه، وفي توسيعه وترميمه كلما أصيب بتلف، وقد كان آخر ترميم له في أيام "أبرهة". ثم إن تلفاً كبيراً أصابه بعد ذلك فيما بين سنة (٥٤٢-٥٧٠ب.م)، فلم يصلح، فترك الناس مزارعهم، واضطروا إلى الهجرة منها، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم.

ويعود غالب علمنا بأحوال السبئيين إلى الكتابات السبئية التي عثر عليها في مواضع متعددة من المناطق العربية الجنوبية... وبفضل الكتابات السبئية حصلنا على شيء من العلم بأصول الحكم في سبأ...و

أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ سبأ: ١٨ – ١٩

إن الإنسان لجهله وقصوره قد يطلب النجاة مما ليس مصيبة في حقيقة الأمر، ولكن لضجره، وسوء تقديره، وكفرانه النعمة قد يعد النعمة مصيبة. وقد حدث هذا لسبأ؛ فقد كانوا في نعمة من تقارب الديار لهم عند أسفارهم، فلا يحتاج مسافرهم إلى حمل زادٍ " "كانوا يسيرون غدوا وعشياً، فيسيرون الصباح ثم تعترضهم قرية فيريحون فيها ويقيلون، ويسيرون المساء فتعرضهم قرية يبيتون بها"[(١)]، كانت "القرى متواصلة متقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حَمل زاد وماء، بل حيث نزل وجد ماء وثمراً، ويَقيل في قرية، ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم"[(٢)]، قد تمت لهم"النعمة عليهم باقتراب المدن، وتيسير الأسفار"[(٣)]، وهذا واضحٌ من قوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ سبأ: ١٨، "{سيروا فيها ليالي وأياماً}وقت شئتم،{آمنين} لا تخافون عدوّاً ولا جوعاً ولا عطشاً، ولا تحتاجون إلى زاد ولا ماء"[(٤)].

هذه نعمة ما أطيبها! ولكنهم لم يعرفوا قدرها "بطروا النعمة، وسئموا أطيب العيش، وملوا العافية، فطلبوا الكد والتعب، كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى، وقالوا:

إننا لا زلنا مع ذلك في جهل بنواح عديدة من نواحي الحياة في الممالك العربية. [المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام–د.جواد علي،٢/٢٥٨-٣١٢باختصار وتصرف].

(١) التحرير والتنوير٢٢/٤٣.

(٢) تفسير ابن كثير٦/٥٠٨-٥٠٩.

(٣) التحرير والتنوير٢٢/٤٣.

(٤) الكشف والبيان٨/٨٥.

لو كان جنى جناننا أبعد؛ لكان أجدر أن نشتهيه"[١]، لقد ذكر الله دعوتهم التي دعوه أن يحققها لهم في قوله سبحانه: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ سبأ: ١٩، "تأويل الكلام: يا ربنا باعدْ بين أسفارنا؛ فاجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز، لنركب فيها الرواحل، ونتزود معنا فيها الأزواد، وهذا من الدلالة على جهل القوم بمقدار العافية"[٢]، لقد "أحبوا مفاوز ومهامه[٣]؛ يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل، والسير في الحَرُور والمخاوف"[٤]. لقد قابلوا "النعمة بالتشكي والاستضرار"[٥]، فأرادوا النجاة من هذا الضرر المتوهم، فكانت الفاجعة التي حلت بهم، والتي ذكرها الله بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ سبأ:١٩، فقوله:{فجعلناهم أحاديث} أي: صاروا حديث مجالس الناس[٦]، حتى صاروا مضرب المثل، فيقال: ذهبوا أيدي سبأ[٧]. وقوله:{ومزقناهم كل ممزق} أي: فرقناهم في البلدان؛ فبعضهم في مكة، وبعضهم في المدينة، وبعضهم في الشام، وبعضهم في العراق، وبعضهم في تهامة[٨].

---

(١) تفسير أبي السعود ١٢٩/٧.

(٢) انظر: تفسير الطبري٣٨٩/٢٠.

(٣) الأرض المهامه، والمهمه: البعيدة، أو الفلاة التي ليس بها ماء ولا أنيس، أو المقفرة.[انظر:تهذيب اللغة؛ مادة(مه)، ولسان العرب؛ مادة(مهه)].

(٤) تفسير ابن كثير٥٠٩/٦.

(٥) المحرر الوجيز٤٨١/٤.

(٦) انظر: النكت والعيون٤/ ٤٤٦، وتفسير القرطبي١٤/ ٢٩١. وتفسير أبي السعود٧/ ١٢٩.

(٧) ذهبوا أيدي سبأ؛ أي: مذاهب سبأ وطرقها. الأيدى: جمع يد، وهي تلطق على الجارحة، وعلى النعمة، وعلى الطريق. والمعنى: ذهبوا في طرق سبأ، وسلكوا مسالكهم. وذلك أن قبائل سبأ متعددة، كل قبيلة ذهبت لمكان غير الذي ذهبت إليه الأخرى. ويضرب هذا المثل للتفرق الذي ليس بعده وصال أو اجتماع.[انظر:نهاية الأرب٣/ ٢٧، والمستقصى في أمثال العرب٨٩/٢، ومجمع الأمثال١/ ٢٧٥].

(٨) انظر: بحر العلوم٣/ ٨٢، ومعالم التنزيل٦/ ٣٩٦.

لقد بيّن الله تعالى بعد ذكره هذه القصة وجوب الاعتبار فيما حصل لسبأ من النقمة؛ فقال:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ سبأ:١٩، هذا درس ينبغي أن يعيه كل"صبار على المكاره ، شكور لنعمة اللّه تعالى يُقِرُّ بها، ويعترف، ويثني على من أولاها، ويصرفها في طاعته. فهذا إذا سمع بقصتهم، وما جرى منهم وعليهم، عرف بذلك أن تلك العقوبة، جزاء لكفرهم نعمة اللّه، وأن من فعل مثلهم، فُعِلَ به كما فعل بهم، وأن شكر اللّه تعالى، حافظ للنعمة، دافع للنقمة"(١)، فيتعرّف على ما هو فيه من النعمة ، ويحذر من تسخطها، أو أن يطلب الخلاص منها جهلاً بقدرها. كل صبّار شكور لابد أن يعي هذا الدرس جيداً ، ويجعل دعواته بالنجاة مضبوطة بهذا الضابط.

إنه درسٌ عظيم، وقد ذكر ابن القيم –رحمه الله– ما يعبِّر أحسن تعبير عن هذا الدرس فقال:"من الآفات الخفية العامة: أن يكون العبد في نعمة أنعم الله بها عليه، واختارها له، فيملها العبد، ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم لجهله أنه خير له منها، وربه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة، ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه، حتى إذا ضاق ذرعا بتلك النعمة، وسخطها، وتبرّم بها، واستحكم مله لها؛ سلبه الله إياها. فإذا انتقل إلى ما طلبه ورأى التفاوت بين ما كان فيه وصار إليه، اشتد قلقه وندمه، وطلب العودة إلى ما كان فيه. وليس على العبد أضر من مله لنعم الله، فانه لا يراها نعمة، ولا يشكره عليها، ولا يفرح بها، بل يسخطها، ويشكو ويعدّها مصيبة. هذا وهي من أعظم نعم الله عليه، فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم، ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمه، وهم مجتهدون في دفعها وردها جهلا وظلما. فكم سعت إلى أحدهم من نعمة، وهو ساع في ردها بجهده، وكم وصلت إليه وهو ساع في دفعها وزوالها بظلمه

(١) تفسير السعدي ص٦٧٧.

وجهله"[١]. فهذه العبارة من جذيلها المحكك[٢]، وعذيقها المرجب[٣]- وفّت بالمقصود، ولا يحتاج معها إلى مزيد.

سلامتها من الإثم:

معنى سلامة الغاية من الإثم: أن يتأكد طالب نجاة شيء، أو طالب النجاة من شيء أن طلبه هذا مباحٌ. وقد دل القرآن على وجوب ذلك، وبيّن القرآن أن طلب النجاة للنفس أو للغير إذا لم يكن مباحاً فهو مذمومٌ، وقد جاءت آياتٌ في القرآن تبين أن الله عاتب نوحاً- عليه السلام-لما سأله نجاة ابنه وهو لم يعلم أن طلبه هذا محرماً، فعاتبه الله كيف يطلبه طلباً لم يتأكد من إباحته؛ فقال سبحانه :﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ هود: ٤٥ - ٤٧، فالله تعالى بيّن لنوح ما وقع فيه؛ فقال:(فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ)، قال الواحدي: لم يعلم نوح أن سؤاله ربه نجاة ولده المصِر على الكفر محظور عليه، حتى أعلمه الله ذلك؛ فيكون المعنى: فلا تسألني ما ليس لك به علم

---

(١) الفوائد ص١٨٠.

(٢) هذا مثل يضرب لمن يُسْتَشْفى برأيه ، مأخوذ من قول الحباب بن المنذر-رضي الله عنه-يوم السقيفة:"أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير"و الجِذْل هو أصل الشجرة(أسفلها) فهو عود قوي ينصب للإبل التي بها جرب، فتَحْتكُّ إلى هذا الجِذْل تَتَشَفَّى به، والمعنى:أنهُ يُتَشَفَّى برأيه كما تَشْتفِي الإبل بهذا الجِذْل الذي تَحْتكُّ إليه.[المحكم لابن سيدة مادة(حك) ومادة(جذل)].

(٣) العذيق هي النخلة، والترجيب هو: إِرْفَادُ النَّخْلَةِ بما يَمْنَعُهَا مِنَ السُّقُوطِ، أَيْ إِنَّ لِي عَشِيرَةً تُعَضِّدُنِي وتَمْنَعُنِي وتُرْفِدُنِي. [تاج العروس لمرتضى الزبيدي مادة(رجب)]. هذا ولابن القيم -رحمه الله- من سداد الرأي، وقوة الاستدلال، وجزالة العبارة مع سهولتها ما يستحق به هذا اللقب، وليس هذا تكرماً، بل هو الحق الذي شهد له به من عرفه.

بجواز مسألته[١]. وبهذا يُعلم أنه لا يحق للمسلم أن يسأل الله شيئاً إلا وهو يعلم إباحتة، ولا يكفي فيه عدم العلم بتحريمه. وقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله-ﷺ-قال:«لاَ يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ؛ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ». قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الاِسْتِعْجَالُ قَالَ: «يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ»[٢]، فبيّن النبي-ﷺ-أن دعاء الإثم لا يستجاب.

وقد عرض القرآن نموذجاً لطلب نجاة فيها إثم، وعاب مريديها، وهي: **السعي للنجاة من أهل الخير**. فقد بيّن القرآن -في آياتٍ كثيرة- أن أعداء الحق يسعون دائماً للخلاص من الرسل وأتباعهم من أهل الصدق، قال الله تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ إبراهيم: ١٣، وقال تعالى:﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ الأنفال: ٣٠. فهذه الآيات وأمثالها عرضت صوراً تطبيقية لمطالب نجاة آثمة، فالسعي للخلاص من أهل الحق والخير إثم واعتداء، وهو جريمة كبيرة من أقبح الخصال. إنّ النجاة من أهل السوء ومعاشرتهم غرض صحيح سعى إليه أهل الخير من الأنبياء وأتباعهم -وقد مرت سابقاً[٣]- ولكن ما ذُكر في هذه الآيات صور انقلبت فيها الموازين فصار فيها أهل الباطل هم الذين يريدون الخلاص من أهل الحق والخير، وهذا من سوء حظهم وإلا فإن الله يدفع البلاء عن أهل البلد الذي يوجد فيه المصلحين- وليس الصالحين- كما قال الله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ هود: ١١٧.

---

(١) الوجيز ص٥٢٢.

(٢) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٩٥حديث ٢٧٣٥، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب بَيَانِ أَنَّهُ يُسْتَجَابُ لِلدَّاعِي مَا لَمْ يَعْجَلْ.

(٣) انظرها: في فصل أنواع النجاة، من هذه الرسالة؛ ص٣٠٥.

وأيضاً- قد ذكر الله سعي أهل الفسق للخلاص من الأنبياء -عليهم السلام- في قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ إبراهيم: ١٣، ضاقوا ذرعاً بالأنبياء وأرادوا الخلاص منهم، وهذا إنما حدث حين انتكست المفاهيم، فهذه الآية تدل على أن عموم الأنبياء-عليهم السلام- أراد الجاهلون التخلص منهم، وقد ذُكر في القرآن بعض الأنبياء بأسمائهم، فقد ورد في القرآن قصة لوط-عليه السلام- وتصرف قومه الذي ذكره الله في قوله: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ النمل:٥٦، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ الأعراف:٨٢، فالجريمة في نظر هؤلاء التي استحق بها آل لوط-عليه السلام- الإخراج هو التطهر، فاعتبروا التطهر عيباً يستحق صاحبه الإخراج من البلد، "عابوهم بغير عَيْب، وذمُّوهم بغير ذَمّ"(١)، بل عابوهم بما هو كمال، "فالطّهارة تطلق على تزكية النّفس والحذر من الرذائل، وهي المراد هنا، وتلك صفة كمال، لكن القوم لما تمرّدوا على الفسوق كانوا يعُدّون الكمال منافراً لطباعهم، فلا يطيقون معاشرة أهل الكمال، ويذمّون ما لهم من الكمالات فيُسمّونها ثقلاً ، ولذا وصَفُوا تنزه لوط عليه السّلام وآله تطهّراً، بصيغة التكلّف والتصنُّع... وجيء بالخبر جملة فعليّة مضارعيّة لدلالتها على أنّ التّطهر متكرّر منهم ومتجدّد، وذلك أدعَى لمنافِرتهم طباعهم والغضب عليهم"(٢). وما حصل للوطٍ- عليه السلام- حصل لشعيب-عليه السلام- كما بيّن الله ذلك في قوله: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ الأعراف: ٨٨. بل حدث هذا من قوم أفضل البشر محمدا-ﷺ-، لقد كان من ضمن الخيارات التي كانت مطروحة إخراجه

(١) قاله قتادة-رحمه الله- وقد أخرجه عنه ابن جرير في تفسيره١٢/٥٥٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير٥/٤٤٥.

من بلده، كما أوضح الله ذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ الأنفال: ٣٠، بل أخرجوه فعلاً، كما قال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ محمد: ١٣. إنهم أرادوا الخلاص منهم لأنهم اعتبروهم مؤذين لهم، لأنهم لا يوافقونهم على ما هم عليه من الضلالة والكفر، وهذا إن كان نجاة في ظن أولئك الأقوام فهو في حقيقة الأمر هلاكٌ لهم، أو طريق للهلاك، ويتبين هذا من سبر ما حدث لأولئك الأقوام، فإن الله أهلكهم بعد تلك التصرفات، قال الله تعالى-عن ثمود قوم صالح عليه السلام-: ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ النمل: ٤٨ - ٥٣. فكانت هذه نتيجة لعدم تحقق سلامة الغاية فيما طلبوه من النجاة، فيجب أن يتحقق طالب النجاة أن طلبه إياها ليس إثما، فإن كان إثما فهو فساد في الغاية يجب تجنبه.

٩- صحة الوسيلة:

- **أن تكون الوسيلة مباحة.**
- **اعتقاد أنها مجرد سبب.**

أن تكون الوسيلة مباحة:

قد تكون النجاة المراد تحقيقها مشروعة ومطلوبة شرعاً وعقلاً، ولكن يكون السبب الذي سُلك للوصول إلى النجاة محرماً، فيحرم سلوكه حينئذٍ لتحريم الوسيلة، لا لتحريم الغاية، فالغاية في الشريعة لا تبرر الوسيلة[١]؛ بل لابد من وسيلة صحيحة للغاية الصحيحة، "والأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله ورسوله-ﷺ-مع عدم الاعتماد عليه"[٢].

إن فعل الأسباب الصحيحة المشروعة أو المباحة مما يؤمر به شرعاً، أما الأسباب المحرمة كالسحر، وتعليق التمائم المحرمة، والكفر، والشرك؛ ففعل تلك الأسباب مذموم، وإن كانت هي وسائل النجاة من ضرر معين، فالواجب على الإنسان حينها الصبر على البلاء، وعدم سلوك تلك الوسيلة للنجاة. فالبقاء في البلاء خيرٌ للإنسان من تلك الوسائل، كما بيّن الله ذلك

---

(١) لا يختلط الأمر هنا مع القاعدة الفقهية (الوسائل لها أحكام المقاصد)، فإن المراد بها الوسائل المباحة، فإن لها أحكام المقاصد، وذلك كالسفر إن كان لأداء فريضة الحج كان فرضاً، وإن كان لفعل فاحشة كان محرماً، وإن كان لأمرٍ مباح كان على أصل إباحته. أما الوسائل المحرمة فهي محرمة وإن كانت وسيلة إلى مقصد واجب، أو مباح، وقد ذكر ابن القيم تفاصيل هذا الأمر، وذكر أمثلة كثيرة للوسيلة المحرمة إذا قصد بها حقا، وذكر من أمثلتها: أن يكون لأحد على رجل حق فيجحده ولا بينة له، فيقيم شاهدي زور يشهدان به ولا يعلمان ثبوت هذا الحق. ومثل أن يطلق الرجل امرأته ثلاثا ويجحد الطلاق ولا بينة لها، فتقيم شاهدين يشهدان انه طلقها ولم يسمعا الطلاق منه، ومثل أن يموت موروثه، فيقيم شاهدي زور أنه مات وأنه وارثه وهما لا يعلمان ذلك، ونظائره ممن له حق لا شاهد له به فيقيم شاهدي زور يشهدان له به. فهذا يأثم على الوسيلة دون المقصود؛ وفي مثل هذا جاء الحديث:"أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك"[انظر:إعلام الموقعين٣/٣٣٥].

(٢) تيسير العزيز الحميد ص١٣٢.

في كتابه، قال الله تعالى-بعدما بيّن تحريم السحر وكفر فاعله-:﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٠٢ – ١٠٣، فبين أن ضررهم بهذه الوسيلة أعظم بكثير مما حصلوا عليه. ويستنبط من هذا قاعدة عامة في كل وسيلة من وسائل النجاة: أن تكون الوسيلة مباحة. ولزيادة إيضاح هذه القاعدة، يحسن دراسة بعض الأسباب المحرمة التي أوردها القرآن، تحت العنوان التالي:

توضيح قرآني لأسباب نجاة غير مباحة:

عرض القرآن الكريم عدة أسباب نجاة مذمومة مطلقاً، ولو كانت الغاية المقصودة منها مباحة أو حتى مشروعة.

السبب الأول:السحر:

فهو وسيلة محرمة بقطع النظر عن المقصود منه، وقد أنزل الله قرآنا يذم السحر والسحرة مطلقاً، قال الله تعالى:﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ البقرة:١٠٢. فبيّن

أن السحر كفرٌ، وأن السحرة كفارٌ[١]، وأن السحر ضرر محض لا نفع فيه مطلقاً[٢]. وبيّن الله أن الساحر تلاحقه خسارة الدنيا والآخرة، وأن شؤم عمله ملازم له دائما؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ طه: ٦٩، وهذا"يعم نفي جميع أنواع الفلاح عن الساحر"[٣]، فهو "لا يفوز حيثما كان وذهب"[٤] و"لا يسعد الساحر ما كان"[٥]. فالسحر محرمٌ دائماً، ولا يجوز استعماله ولو كان لغرض صحيح؛ كتحبيب المرأة إلى زوجها؛ لأنه وسيلة محرمة، بل حتى لو كان لحل سحر مثله على الراجح، وإن كان قال به بعض العلماء؛ فلا يؤخذ بقول أحدٍ خالف قوله قول النبي-ﷺ-، قال ابن عثيمين:"لو كان ابن المسيب[٦] ومن فوق ابن المسيب ممن ليس قوله حجة يرى أنه جائز، فلا يلزم من ذلك أن يكون جائزا في حكم الله حتى يعرض على الكتاب والسنة، وقد سئل الرسول-ﷺ-عن النشرة[٧]؟ فقال: هي من عمل الشيطان"[١]، انتهى

---

(١) المقصود السحر الذي يُتعلَّم من الشياطين، أو يكون بالتقرب إليهم، دون الأنواع الأخرى فإن فيها خلافاً بين العلماء.[انظر: المغني لابن قدامة١٠/١٠٤].

(٢) انظر: فتح القدير١/١٨٦.

(٣) أضواء البيان٤/٣٩.

(٤) بحر العلوم٢/٤٠٥.

(٥) الوجيز ص٦٩٩.

(٦) ابن المسيب (١٣ - ٩٤هـ) سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد: سيد التابعين، وأحد الفقهاء المدينة السبعة، بل هو فقيه الفقهاء. جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع. أخذ العلم عن عددٍ من الصحابة-ﷺ- وكان يسرد الصوم، ولم ينادى للصلاة إلا وهو في المسجد. وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءا. قال عنه ابن عمر: لو رآه النبي-ﷺ-لسرَّه. وكان أحفظ الناس لقضاء قضاة النبي-ﷺ-وخلفائه-ﷺ-. توفي بالمدينة.[انظر:صفة الصفوة٢/٨٠، وطبقات الفقهاءص٥٧، والأعلام٣/١٠٢].

(٧) النشرة المعهودة في الجاهلية هي حل السحر عن المسحور بسحر مثله، وهي التي سئل عنها النبي-ﷺ- فأخبر أنها من عمل الشيطان.[انظر: تيسير العزيز الحميد٣٦٥].

كلام ابن عثيمين[٢]، وأفاد ابن باز-أن هذا الحديث-: دالٌ على أن حل السحر بالسحر من عمل الشيطان[٣].

السبب الثاني: الكفر:

النجاة المشروعة إذا كان سيتوصل إليها بالكفر حرمت، والبقاء في البلاء خير من إزالته بكفر يذهب بدين المسلم، كما دل على ذلك القرآن. قال الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ النحل: ١٠٦ – ١٠٧، فهذا المستحب للحياة الدنيا على الآخرة، رأى ما فيه المؤمنون من الضيق، وما فيه الكفار من السعة[٤]، فأراد النجاة من الضيق الدنيوي بالكفر، ففي الآية ذم من لم يصبر على أذى الكفار إذا عذبوه فسعى إلى النجاة من ذلك بالكفر، قال ابن تيمية رحمه الله:"من شرح بالكفر صدرا من المكرهين فإنه كافر"[٥].

وقال الله تعالى:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسند جابر من مسنده٢٢/٤٠حديث رقم(١٤١٣٥) وأبو داود في سننه٤/٥، كتاب الطب، باب في النشرة، حديث رقم(٣٨٧٠) قال الشيخ عبد العزيز بن باز:"الحديث صحيح رواه الإمام أحمد رحمه الله وأبو داود رحمه الله بإسناد جيد.[فتاوى نور على الدرب ص٢٠٠].

(٢) القول المفيد١/٥٥٧.

(٣) فتاوى نور على الدرب ص٢٠٠.

(٤) انظر: السراج المنير٢/ ٢٠٧.

(٥) الصارم المسلول ص٥٢٣.

﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ العنكبوت: ١٠،ومعنى:{فتنة الناس} "الأذى الذي يصيبه من الكفار، وإيذاء الكفار للمؤمنين؛ من أنواع الابتلاء الذي هو الفتنة"(١)، والآية نازلة في أناس"إذا أوذوا، وأصابهم بلاء من المشركين؛ رجعوا إلى الكفر؛ مخافة من يؤذيهم"(٢)، فهم أرادوا النجاة من هذا الأذى الذي خافوه. ومعنى{جعل فتنة الناس كعذاب الله}"أي: "لم يصبر على أذاهم، وجعله في الشدة والعظم كعذاب الله فأطاع الناس كما يطيع الله"(٣).

وقال الله تعالى:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ الحج: ١١. يدخل في الآية كل من " إذا أصابته شدّة أو فتنة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر"(٤)، قال ابن تيمية:"لا بد من أذى لكل من كان في الدنيا؛ فإن لم يصبر على الأذى في طاعة الله، بل اختار المعصية؛ كان ما يحصل له من الشر أعظم مما فر منه بكثير"(٥).

---

(١) أضواء البيان٦/١٥٦.

(٢) قاله الضحاك، أخرجه عنه ابن جرير في تفسيره٢٠/١٣

(٣) انظر: فتح القدير٤/٢٧٥

(٤) انظر: تفسير الطبري١٨/٥٧٧.

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية١٥/١٣٢.

السبب الثالث: القتال مع الكفار:

القتال مع الكفار، أو تكثير سوادهم ولو من غير قتال، قد يكون وسيلة للنجاة من أذاهم وعيبهم وقدحهم، ولكنه وسيلة محرمة ولو أدت إلى ذلك الغرض الصحيح، وقد دل القرآن على ذلك. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء: ٩٧، قال ابن عباس-رضي الله عنهما-:" كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فقال المسلمون:"كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا"! فاستغفروا لهم، فنزلت"[(١)]، وعن ابن عباس-رضي الله عنهما- أَنَّ أُنَاسًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ-، فَيَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يَضْرِبُهُ فَيَقْتُلُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ}"[(٢)]، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن:" فتأمل كيف ترتب عليهم هذا الوعيد، وأوجب لهم النار، وقد ورد أنهم مكرهون؛ على تكثير سواد المشركين فقط"[(٣)]. وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب:"لما خرجت قريش إلى بدر: خرجوا معهم كرها. فقتل بعضهم بالرمي، فلما علم الصحابة-ﷺ- أن فلانا قتل، وفلانا قتل، تأسفوا على ذلك وقالوا: قتلنا إخواننا. فأنزل الله تعالى فيهم:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ}. فليتأمل الناصح لنفسه هذه القصة، وما أنزل الله فيها من الآيات. فإن أولئك لو تكلموا بكلام الكفر، وفعلوا كفرًا ظاهرًا

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره٩/١٠٢-١٠٣.

(٢) أخرجه البخاري٩/٦٥ حديث٧٠٨٥، كتاب الفتن، باب من كره أن يكثر سواد الفتن والظلم.

(٣) الدرر السنية١١/٣٣٧.

يُرضون به قومهم: لم يتأسف الصحابة على قتلهم...و لو سمعوا عنهم كلاما أو فعلا يرضون به المشركين من غير إكراه، ما كانوا يقولون: "قتلنا إخواننا"[١].

(١) مختصر سيرة الرسول-ﷺ-ص٤٦-٤٧.

السبب الرابع: لبس الحلقة والخيط ونحوهما لدفع البلاء

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف:١٠٦، وقد وردت تفسيرات للآية عن بعض الصحابة-ﷺ-تبيّن أن من المراد منها لبس الحلقة والخيط ونحوهما؛ اعتقادا من فاعل ذلك أنها أسباب لدفع البلاء[١]، - فهي حينئذٍ شرك أصغر، وقد تصل في بعض الأحوال إلى الشرك الأكبر المخرج من الملة[٢]- ومما ورد عن الصحابة-ﷺ- في تفسير الآية، ما ورد عن حُذَيْفَةُ-ﷺ-أنه دَخَلَ عَلَى مَرِيضٍ، فَرَأَى فِي عَضُدِهِ سَيْرًا، فَقَطَعَهُ أَوِ انْتَزَعَهُ، ثُمَّ قرأ:"وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ"[٣]. وأورد ابن كثير رحمه الله -في تفسيره لهذه الآية - حديث ابن مسعود-ﷺ-قال: قال رسول الله-ﷺ-: "إن الرُّقَى[٤]، والتَّمائِم[٥]، والتِّوَلة[٦]؛ شرْك"[٧].

---

(١) انظر:فتح المجيد ص١١٤.

(٢) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: تعليق التمائم خوفا من العين وغيرها؛ إذا اعتقد أن هذه أسباب لرفع البلاء أو دفعه؛ فهذا شرك أصغر؛ لأن الله لم يجعل هذه أسباباً، وأما إن اعتقد أنها تدفع أو ترفع البلاء بنفسها، فهذا شرك أكبر؛ لأنه تعلق بغير الله.[انظر: الكبائر ص٢٩].

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره٧/ ٢٢٠٨.

(٤) الرقى: جمع رقية، وهي: أن يتكلم بكلامٍ، ثم يتفل أو ينفث الرطوبة أو الهواء أو النَفَس المباشر لذلك الكلام؛ للاستشفاء به.[انظر:فتح الباري١٢/ ٣٧١، والقاموس الفقهي مادة(رق)].

(٥) التمائم هي خَرز تُثْقَب، ويجعل فيها سُيورٌ وخُيوط تُعلَّق بها، وقيل هي: قِلادة يجعل فيها سُيُورٌ، وكان الأعرابُ يعلِّقونها على أَولادِهم؛ لنفي النفْس والعَين بزَعْمهم. [انظر:لسان العرب؛مادة(تمم)].

(٦) التولة: ضَرْبٌ من السحر تحبب به المرأة نفسها إلى زوجها.[انظر: الفائق؛ مادة(التاء مع الواو)].

(٧) أخرجه أحمد في مسنده١/ ٣٨١حديث٣٦١٥. وأبو داود في سننه٤/ ٩ حديث٣٨٨٣، كتاب الطب، باب في تعليق التمائم. قال الألباني:صحيح.[انظر:السلسلة الصحيحة٦/ ٤٧١].

خلاصة ما تقدم

تبين مما سبق" أن الأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله ورسوله-ﷺ-مع عدم الاعتماد عليه"[(١)]، وأن صحة وسيلة النجاة، ضابط من ضوابط النجاة الصحيحة، ولا تكون الوسيلة صحيحة إلا إذا كانت مباحة.

وتبيّن أيضاً أنه إذا كان السبب محرماً فسلوكه للوصول إلى النجاة خطأ، وقد يكون كفراً ؛ كالسحر، أو مظاهرة الكفار على المسلمين لكي يسلم من شرهم، وقد يكون شركاً أصغر؛ كلبس الحلقة والخيط ونحوهما اعتقاداً أنها أسباب لدفع البلاء. وأما إن كان السبب مكروها كالاكتواء والاسترقاء للنجاة من المرض، فإن الكُمّل من المؤمنين يتركونه "مع حاجتهم إليه...لكونه سببا مكروها، لاسيما والمريض يتشبث بما يظنه سببا لشفائه بخيط العنكبوت، أما نفس مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهية فيه؛ فغير قادح في التوكل؛ فلا يكون تركه مشروعا"[(٢)]، ولكن ليس ترك السبب المكروه بلازم، فمن تركه يمدح، ويرجى له أن يدخل في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، ومن لم يتركه فلا لوم عليه[(٣)].

---

(١) تيسير العزيز الحميدص١٣٢.

(٢) عن ابن عَبَّاسٍ-رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ-ﷺ-: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ؛ فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْعَشَرَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ؛ قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ هَؤُلَاءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لا، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ! فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَلَا عَذَابَ، قُلْتُ: وَلِمْ؟ قَالَ: كَانُوا لَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"[أخرجه البخاري٨/١٤٠حديث ٦٥٤١،كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب. ومسلم بلفظ مقاربٍ١/١٩٩حديث٢٢٠، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب].

(٣) انظر:تيسير العزيز الحميد،ص٨٧.

اعتقاد أنها مجرد سبب:

وهذا ينبني عليه أمران:

أحدهما: أن لا تنسب نعمة النجاة إليه-بل تنسب إلى الله تعالى؛ فحقٌ على من أنجي أن يعترف بالفضل لله، ويحمده، ويشكره[١]، ومن الشرك نسبة نعمة النجاة إلى السبب[٢].

الثاني: أن لا يعتمد عليه في حصول النجاة، بل يعطى حجمه؛ فهو سبب لا أكثر، ويكون الاعتماد كله على الله؛ إذ إنه هو الذي جعل السبب سبباً، وقد يبطل فاعلية ذاك السبب،"فالمكلف يتعاطى السبب امتثالاً لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء الله وقوعه، فهو متوكل على الله، عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر، ولو شاء الله تخلف تأثير الأسباب عن مسبباتها لتخلف"[٣]. قال ابن القيم:"الالتفات إلى الأسباب ضربان: أحدهما شرك، والآخر عبودية وتوحيد؛ فالشرك: أن يعتمد عليها ويطمئن إليها ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود، فهو معرض عن المسبب لها، ويجعل نظره والتفاته مقصورا عليها. وأما إن التفت إليها التفات امتثال وقيام بها، وأداء لحق العبودية فيها، وإنزالها منازلها؛ فهذا

---

(١) انظر لبيان وجوب هذه الأشياء: فصل: ما يشرع بعد النجاة؛ في هذه الرسالة؛ ص٧٠٢، و٧٠٥.

(٢) عدَّ السلف نسبة النِعم إلى السبب من الشرك؛ وذكروا من أمثلته قول الرجل: لولا البط في الدار لأتانا اللصوص، ولولا كليبة فلان لأتانا اللصوص، ومنه قولهم إذا نجوا من الغرق: كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً، وقول من كان غنياً من الإرث: هذا مالي ورثته عن آبائي؛ عدّ السلف كل ذلك من الشرك لما فيه من نسبة النعمة إلى السبب، ويكون شركاً أصغر إذا كان مجرد لفظاً، أما إن اعتقد إن كان عن اعتقاد بفاعلية مَنْ نسبت إليه فذلك شركٌ أكبر.[انظر: كتاب التوحيد؛ للشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ مع شرحه؛ قرة عيون الموحدين؛ باب قول الله تعالى: (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) ص٣٨٣].

(٣) أضواء البيان٣/٣٩٨.

الالتفات عبودية وتوحيد إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب، وأما محوها أن تكون أسبابا فقدح في العقل والحس والفطرة"[١].

وقد دل القرآن على أن الله قد يبطل فاعلية ذلك السبب، إما بالقوة الخفية غير المدركة التي هي من خصائص الله، أو بقوة محسوسة مدركة لا قبل للخلق بها. فإذا "شاء الله تخلف تأثير الأسباب عن مسبباتها تخلف"[٢]، فهذان أمران يبطل الله بهما الأسباب المحسوسة -إذا شاء-:(قدرة التأثير الخفي غير المحسوس)، (أو بشيء محسوس يبطل ذلك السبب). فمما ورد في القرآن عن الأول قول الله تعالى -في قصة إبراهيم-عليه السلام-: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ الأنبياء: ٦٨ - ٧١، فقد "صنعوا له حظيرة من حَطَب جَزْل، وأشعلوا فيه النار من كل جانب، فأصبح ولم يصِبه منها شيء"[٣]، لقد أبطل الله تأثير السبب بقدرته الخفية غير المحسوسة، وفي هذا "دلالة قاطعة على أن التأثير حقيقة إنما هو بمشيئة خالق السموات والأرض، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، وأنه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته جل وعلا"[٤]، فيجب أن يعطى السبب حجمه لا أكثر.

وقال سبحانه: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ الأعراف: ١١٧ – ١١٩،

(١) مدارج السالكين٣/٤٩٩.

(٢) أضواء البيان٣/٣٩٨.

(٣) تفسير ابن كثير٥/٣٥٢.

(٤) أضواء البيان٣/٣٩٨.

"معنى تلقفه ولقفه: إذا تناوله بسرعة، والمراد:أنها تبتلع كل ما زوروه وافتعلوه من الحبال والعصي"(١)، لقد أبطل الله فاعلية السبب -الذي هو السحر- بمعجزة خارقة لموسى-عليه السلام-؛ فلقد تحولت عصاه إلى حيّة حقيقة، فلقفت حبالهم وعصيهم التي خيلوها تسعى بسحرهم العظيم الموحش. وهذا دليل على وجوب التوكل على الله، وعدم الاعتماد على السبب؛ إذ قد يُبطل الله فاعليته بقدرته سبحانه.

وقال تعالى:﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ القمر: ٤٤ – ٤٥، "{جَمِيعٌ}: اسم للجماعة الذين أمرهم واحد"(٢)، ولا شك أن اجتماع الكلمة سبب من أسباب النصر، لكن الله تعالى بيّن في هذه الآية العظيمة أن هذا السبب لن يجدي شيئاً، فسيبطل الله فاعليته وسينهزمون بجمعهم، وهذا ما حدث فعلاً في غزوة بدر، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ-ﷺ-يَوْمَ بَدْرٍ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ" فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ حَسْبُكَ! فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}"(٣). وقال عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-:"لما نزلت:{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ} جعلت أقول: أيّ جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبي-ﷺ-يثب في الدرع ويقول:{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}"(٤)؛ والشاهد من هذين الحديثين: أن الجمع سبب محسوسٌ من أسباب النصر؛ أبطله بسبب محسوس، وهو ما حصل من جهاد المسلمين لهم في غزوة بدر.

وتذكيراً بقصة عايشها المشركون الذين بُعث فيهم النبي-ﷺ-أبطل الله فيها الكيد والأسباب البشرية بقوة منه سبحانه لم تخطر لأولئك على بال، أنزل الله سورة كاملة في كتابه

---

(١) أضواء البيان٤/٣٧.

(٢) التحرير والتنوير٢٧/٢٠١.

(٣) أخرجه البخاري٥/٩٢حديث٣٩٥٣. كتاب المغازي ، باب قول الله تعالى:{إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين}.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره٢٢/٦٠٢.

خصصها سبحانه لذكر هذه القصة، وهي قصة أصحاب الفيل[١]؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ الفيل: ١ – ٥، لقد أبطل الله الأسباب التي كانت بأيديهم بإرساله عذاباً محسوساً أبطل به أسبابهم؛ فعن عكرمة – في قوله تعالى-:(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ) قال: طير خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع، لم تزل ترميهم بحجارة حتى جدرت جلودهم – فما رئي الجدري قبل إلا يومئذ، وما رئيت الطير قبل يومئذ ولا بعد- فانطلق فيلهم حتى أتوا بوادي ما درَّ بمطر قبل ذلك بخمسمائة سنة، فأرسل الله عليهم السيل فغرقهم"[٢]. وقد ذكر الله تعالى الفيل وما صنع بأصحابه في سورة الفيل... ولو لم ينطق القرآن به لكان في الأخبار المتواطئة والأشعار المتظاهرة في الجاهلية والإسلام حجة في ذلك. لقد كانت العرب تؤرخ به، كانوا يؤرخون كتبهم وديوانهم من سنة الفيل التي ولد فيها النبي-ﷺ-. لقد بلغ من شهرة أمر الفيل، وصنع الله

---

(١) وملخص حديث ابن عباس-رضي الله عنهما- في قصتهم: أن أبرهة الأشرم (أبا يكسوم)، تغلب على اليمن، ودعا أهلها إلى طاعته فأجابوه، فرأى الناس يتجهزون أيام الحج لزيارة الكعبة، فبنى بيتاً يريده بديلاً للناس عن الكعبة وسماه:القليس، فترصد له نفيل الخثعمي-وكان نفيل صديقاً لعبد المطلب- فجاء بعذرةٍ فلطخ بها قبلة القليس، وجمع جيفاً فألقاها فيه، فأخبر أبرهة بذلك فغضب غضباً شديداً، وقال: إنما فعلت هذا العرب غضباً لبيتهم، لأنقضنه حجراً حجراً. فاتجه لهذا الغرض إلى مكة، على فيلٍ يسمى محمود، عازماً على هدم الكعبة، فلما وصل مشارف مكة ربض الفيل، وأقبلت الطير من البحر أبابيل مع كل طائرٍ ثلاثة أحجار، حجران في رجليه، وحجر في منقاره، فقذفت الحجارة عليهم لا تصيب شيئاً إلا هشمته، وإلا نفط ذلك الموضع، فكان ذلك أول ما كان الجدري والحصبة والأشجار المرة، فأهمدتهم الحجارة، وبعث الله سيلاً فذهب بهم فألقاهم في البحر. قال: وولى أبرهة ومن بقي معه هراباً، فجعل أبرهة يسقط عضواً عضواً، وأما محمود الفيل فإنه لما لم يشجع على الحرم نجا"[انظر:الطبقات الكبرى لابن سعد١/٩١].

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء٣/٣٣٣.

بأصحابه، واستفاضة ذلك فيهم؛ مبلغاً، حتى قالت عائشة -رضي الله عنها على حداثة سنها-: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين ببطن مكة يستطعمان[١]"[٢].

إن البيان السابق، يؤكد حقيقة قطعية يؤمن بها أهل السنة والجماعة، وهي أن الأسباب لا تؤدي إلى شيء إلا بإذن الله، فيجب أن يستحضر المؤمن أن الأسباب مجرد أسباب لا أكثر. ونتيجة لتلك الحقيقة طمأن الله المؤمنين المجاهدين إلى أن الأسباب التي بأيدي الكفار لا تضرهم شيئاً، لأن الله محيط بها وبهم، فقال:﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٢٠، قال ابن كثير:"يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وَكَيْدِ الفُجّار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه"[٣]، فإذا أراد أن لا تنفذ الأسباب لم تنفذ.

إن فاعلية الأسباب ليست ذاتية بل بإذن الله، وقد علَّم الله المؤمنين ذلك ليعتقدوه، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ المجادلة: ١٠، "فقوله:{وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ} تثبت المعنى السابق، قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وليس التناجي بضارّ المؤمنين شيئا إلا بإذن الله، يعني بقضاء الله وقدره"[٤]. وقوله:{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} يعني: على المؤمنين أن لا يحزنوا من تناجي المنافقين ومن كيدهم، فتناجيهم غير ضارّهم إذا حفظهم ربهم"[٥]. وهناك آية

---

(١) أخرجه بان إسحاق في السيرة١/٤٢.

(٢) أخبار مكة للأزرقي١/١٢١.

(٣) تفسير ابن كثير٢/١٠٩.

(٤) تفسير الطبري٢٣/٢٤٣.

(٥) انظر: المرجع السابق.

أخرى في كتاب الله تقوي هذه العقيدة، وهي ما ذكره الله تعالى عن عدم تأثير السحر إلا بإذنه سبحانه، مع أن السحر من أقوى الأسباب فاعلية، ومع ذلك أكّد الله عدم تأثيره إلا بإذنه؛ فقال سبحانه:﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٠٢، فهذا يؤكد أن فاعلية السبب ليست ذاتيه.

وإن كان القتال والضرب في الأرض في أوقات المجاعة من أسباب الموت، فإن هذه الأسباب لم تخرج عن كونها أسباباً؛ قال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ آل عمران: ١٥٦، فقد يعيش المقاتل عمراً، ويموت هو أو غيره على فراشه، قال الله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ١٤٥، قال الطبري: أي: لن يموت أحد إلا بعد بلوغ أجله الذي جعله الله غاية لحياته، فإذا بلغه أذن الله له بالموت، فيموت حينئذٍ، وأما قبل ذلك فلن يموت بكيد كائد ولا بحيلة محتال[1].

والمصائب التي تحدث لها أسبابها ، لكن الحقيقة التي ذكرها الله بقوله: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ التغابن: ١١، يجب أن تكون ماثلة دائماً أمام أعين كل مؤمن.

يتبين بما سبق أن اعتقاد السبب مجرد سبب لا أكثر جزء من صحة الوسيلة، وصحة الوسيلة ضابط من ضوابط النجاة الصحيحة.

---

(١) انظر: المرجع السابق٧/ ٢٦٠.

المبحث الثاني: ضوابط النجاة غير الصحيحة

- تمهيد: توضيح المراد تحديده بهذه الضوابط.
- ضوابط النجاة الوهمية؛ وأتناول فيها ما يلي:

١. فوات وقت النجاة.

٢. ظن اطراد ما ليس مطرداً.

٣. الاعتبار بالصورة الظاهرة المحسوسة دون الحقيقة الباطنة الخفية.

٤. ترك العمل لما يؤدي إلى النجاة.

٥. ظن صحة مصدر التلقي الفاسد.

٦. عدم أهلية من تطلب منه النجاة لتحقيقها.

تمهيد: توضيح المراد تحديده بهذه الضوابط:

سيتم-بمشيئة الله- استخلاص هذه الضوابط من خلال دراسة نوعين من التصرفات:

النوع الأول: التصرفات التي يتصرفها البعض لتؤدي بهم إلى النجاة؛ ولكنها لا تؤدي إليها، بل ربما تودي إلى عكسها. وقد تم تناول تلك التصرفات في مبحث: أسباب النجاة الوهمية[١]، وفي فصل: موانع النجاة[٢]- فيحسن وضع ضوابط تحدد تلك التصرفات، لتسهيل معرفتها، ليتجنبها من أراد نجاة نفسه.

النوع الثاني: التصرفات التي لا يقصد متصرفها تحقيق النجاة بها، ولكنها تؤدي-من حيث يشعر أو لا يشعر- إلى امتناع النجاة في حقه -وقد تم تناولها في فصل: موانع النجاة[٣]، وجاء ذكر بعضها في ثنايا الكلام عن أنواع النجاة[٤]-.

وبالإضافة إلى ذلك سيتم استخلاص بعض الضوابط من خلال بعض الآيات القرآنية التي ذكرت أسباباً وهمية، وبينت سبب كونها وهمية، أو ذكرت موانع للنجاة وبينت أسباب كونها موانع.

وبذلك يتبين أن هنا ثلاث جوانب يُستخلص من دراستها ضوابط النجاة غير الصحيحة، والحيز الذي دُرست فيه الجوانب الثلاث طويل جداً، فكان من المستحسن وضع ضوابط تُسَهِّل تحديدها بدقة، ليتجنبها من يريد السلامة.

---

(١) انظر: هذه الرسالة؛ فصل: أسباب النجاة، مبحث: أسباب النجاة الوهمية، ص٤٧٦.

(٢) انظر: المرجع السابق؛ فصل: موانع النجاة، ص٥٤٨.

(٣) انظر: المرجع السابق.

(٤) انظر: المرجع السابق؛ فصل: أنواع النجاة، ص١١٨.

ضوابط النجاة الوهمية؛ وهي ما يلي:

١- فوات وقت النجاة:

فوات وقتها؛ إما بفوات وقت طلبها، أو بفوات وقت تحصيلها. وقد تم تناول تطبيقات هذا الضابط في مبحث أسباب النجاة الوهمية. فإن من تلك الأسباب الوهمية التي تم تناولها: الإيمان والتوبة بعد فوات وقتهما[١]، وفوات وقتهما يكون بالموت، أو بحضور الموت، أو بمشاهدة بعض أشراط الساعة الكبرى، أو بقيام الساعة-كما سبق[٢]- والفوات الحاصل بذلك، فوات لوقت تحصيل النجاة. ومن الأسباب الوهمية التي تم تناولها: الدعاء بعد فوات وقته في حق الداعي[٣]، وفوات وقته في حقه يكون بمشاهدة العذاب في الدنيا، أو بقيام الساعة- كما سبق-[٤].

٢- ظن اطراد[٥] ما ليس مطرداً:

ويعني ذلك أنه إذا وُجد سببٌ يحقق النجاة في موضع، ظن المنخدع به أنه مطردٌ يحقق النجاة في كل موضع، ويكون الواقع أن هذا السبب المعين ليس مطرداً، بل هو سببٌ لتحقيق النجاة في حال دون حال، أو في الدنيا دون الآخرة. وقد سبق دراسة تطبيقات هذا الضابط في هذه الرسالة، في خمسة مواضع من أسباب النجاة الوهمية؛ وهي كثرة الأموال والأولاد[٦]، والمكر السيئ وإحكام الخطط[٧]، ومجرد القوة العسكرية[٨]، ومجرد الحذر واتخاذ الحيطة[٩]، والقرابة من

---

(١) انظر: المرجع السابق؛ فصل: أسباب النجاة، مبحث: أسباب النجاة الوهمية، ص٤٧٧.

(٢) انظر: المرجع السابق.

(٣) انظر: المرجع السابق؛ فصل: أسباب النجاة، مبحث: أسباب النجاة الوهمية، ص٥٢٥.

(٤) انظر: المرجع السابق؛ فصل: أسباب النجاة، مبحث: أسباب النجاة الوهمية، ص٤٧٧.

(٥) يُقْصد باطراد الحد أو الضابط: جريان أفراده مجرى واحداً، فإذا وجد المحدود وجد الحد.[انظر: الكليات١/١٩٩].

(٦) انظر: ص٤٩٧.

(٧) انظر: ص٥٠٣.

(٨) انظر: ص٥٠٩.

(٩) انظر: ص٥١٥.

الصالحين[١]. ومن ذلك أيضاً ما سبق ذكره في فصل أنواع النجاة من قصة ابن نوح؛ حيث بيّن الله قوله في قوله سبحانه: ﴿قَالَ سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ هود: ٤٣؛ فابن نوح ظن أن إنجاء الجبل من الغرق بالمطر مطرداً، فبيّن له أبوه أن الأمر مختلف، وأن هذه المرة ليست مثل المرات السابقة، فهذه المرة الجبل لا يعصم من الغرق، لأن الله قد أراد إهلاك من ليس في السفينة.

٣- الاعتبار بالصورة الظاهرة المحسوسة دون الحقيقة الباطنة الخفية:

ويعني ذلك أن بعض الحقائق تخفى على العقول، فيخبر الله تعالى أو رسوله-ﷺ-بالحقيقة، ويكون الظاهر لبعض الأذهان ليس كذلك، فيجري بعض الناس مع ما ظهر لعقله، ويغفل عن ما أخبر به الوحي، أو يتركه. ومثال ذلك الجهاد في سبيل الله، فإن فيه قتلاً وقتالاً، فالظاهر المحسوس أن تركه سببٌ للنجاة من القتل، وهذا ما جرى عليه المنافقون حيث تركوا الجهاد طلباً للسلامة من القتل[٢]، ولكن الله أخبر أن ترك الجهاد ليس سبباً للسلامة من القتل[٣]، ومثل ما أخبر به الرسول-ﷺ-أن الصدقة لا تنقص المال[٤] مع أنها تنقصه حساً.

وينطبق هذا الضابط على أربعة مواضع؛ سبق تناول ثلاثة منها في مبحث أسباب النجاة الوهمية؛ وهي: ترك الجهاد في سبيل الله[٥]، واستغفار الرسول -ﷺ- لأحدٍ بكذبه عليه[٦]،

---

(١) انظر: ص٥٣١.

(٢) قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ} (آل عمران:١٥٦).

(٣) قال الله تعالى:{قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً}(الأحزاب:١٦).

(٤) قال النبي-ﷺ-:"ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا يعفو إلا عزا". [أخرجه مسلم٤/٢٠٠١حديث٢٥٨٨؛ كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع].

(٥) انظر: ص٥٢٠.

(٦) انظر: ص٥٣٦.

وطاعة الزعماء والعلماء والأصدقاء، والأنظمة والتشريعات؛ في معصية الله[١]، ورابعها؛ في فصل موانع النجاة؛ وهو: ابتغاء الفرج من غير الله[٢].

٤- ترك العمل لما يؤدي إلى النجاة:

ربما يتصور البعض أن ترك عمل الشر والخير معاً كافٍ في تحقيق النجاة. ومع أنه لا يمكن تصور هذا، لأن هناك أشياء متضادة لابد من الاتصاف بأحدها؛ كالإيمان والكفر؛ فإذا لم يؤمن صار كافراً. والتصديق والتكذيب؛ فعدم تصديق الله ورسوله-ﷺ-يعني تكذيبهما، أو الشك في خبرهما؛ وكلاهما كفرٌ. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن الإنسان خُلق ظلوماً جهولاً[٣]؛ فإذا لم يعمل الإنسان ما أمر به شرعاً لتهذيب نفسه بقي ظلوماً جهولاً، وكل عباد الله ضالٌ إلا من هداه الله[٤]؛ فإذا لم يعمل ما أمر به شرعاً ليهديه الله بقي ضالاً. فكذلك هو هالك إذا تَرَكَ ما أُمِر به شرعاً للنجاة، فإن النجاة لا تتحقق للإنسان بمجرد عدم فعله الشر والخير معاً، بل لابد لتحصيلها أن يعمل ما خُلق من أجله-وهو الإيمان الصحيح، والتوحيد الخالص[٥]-. وقد سبق في فصل موانع النجاة من هذه الرسالة- بيان امتناع نجاة من نسي الذكر والدار الآخرة[٦]، والنسيان هنا يراد به: الترك، وقلة المبالاة، وعدم الاكتراث-كما سبق بيانه[٧]-.

---

(١) انظر: ص٥٤٠.

(٢) انظر: ص٥٧٧.

(٣) قال الله تعالى-عن الأمانة-: { وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً} (الأحزاب:٧٢).

(٤) قال النبي-ﷺ-يقول الله تعالى: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم..."الحديث. [أخرجه مسلم٤/١٩٩٤حديث ٢٥٧٧؛ كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظُلم].

(٥) قال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات:٥٦).

(٦) انظر: هذه الرسالة ص٥٩٢.

(٧) انظر: المرجع السابق.

٥- ظن صحة مصدر التلقي الفاسد دون ضوابط:

مصدر التلقي الصحيح يؤدي إلى عمل صحيح، فيؤدي إلى النجاة، ومصدر التلقي الفاسد إذا لم يُضبط بضوابط تصححه يؤدي-بداهة- إلى عمل فاسد، فيؤدي إلى عدم النجاة.

وقد كشف القرآن وبيّن أن مصادر التلقي عند الكفار فاسدة، فأدت بهم إلى فساد أعمالهم. **ومن مصادر التلقي الفاسدة التي كشفها القرآن عنهم:**

(١) **اتباع ما عليه الآباء والأسلاف بإطلاق،**

فعندما يكون الآباء ضالين فذلك يؤدي إلى ضلال متبعيهم، وبالتالي حصول هلاكهم؛ قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ البقرة: ١٧٠؛ قال السمرقندي:معناه أنهم اتبعوا آباءهم مع أنهم كانوا جهالا فاتبعوهم بغير حجة فكأنه نهاهم عن التقليد ووبخهم عليه، وأمرهم بالتمسك بالحجة[١]. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ المائدة: ١٠٤. وقد أمر الله تعالى المتمسك بالحق أن لا يصيبه الشك نتيجة كثرة هذا الصنف من الناس، فإنهم مجرد مقلدة، فقال سبحانه: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾ هود:١٠٩؛ قال الطبري:"يُخبر تعالى ذكره أنهم لم يعبدُوا ما عبدوا من الأوثان إلا اتباعًا منهم منهاج آبائهم، واقتفاءً منهم آثارهم في عبادتهموها، لا عن أمر الله إياهم بذلك، ولا بحجة تبيَّنوها توجب عليهم عبادتها"[٢]، وقال ابن عطية:"المعنى أنهم مقلدون لا برهان عندهم ولا حجة، وإنما عبادتهم تشبها منهم بأباتهم، لا عن بصيرة"[٣]. إن كونهم جمعاً كثيراً يُشاهد الناس أن لهم عقولاً في

---

(١) انظر:بحر العلوم.

(٢) تفسير الطبري١٥/٤٩١.

(٣) المحرر الوجيز٣/٢٢٣.

معاشهم، وفي أقوالهم، وفي نظامهم؛ داعياً لأن يظن الإنسان –غير المتحصن بالقرآن– أنهم على شيء، فبيّن القرآن أنهم وإن اتفقوا فإنهم على خطأٍ وضلال، فليس لهم عليه دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم، أنهم يَعْبُدُونَ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ، ومن المعلوم أن هذا، ليس بشبهة، فضلا عن أن يكون دليلا[1].

(٢) **الهوى بإطلاق:** فهو من مصادر التلقي الفاسدة:

من المعلوم أن من اتبع الهوى هوى به. قال الله تعالى مبيناً ذلك عنهم: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ النجم:٢٣؛ قال برهان الدين البقاعي: "{وما تهوى الأنفس}أي: تشتهي، وهي –لما لها من النقص– لا تشتهي أبداً إلا بما يهوي بها عن غاية أوجها إلى أسفل حضيضها[2]، وأما المعالي وحسن العواقب فإنما يتشوق إليها العقل"[3]. وقد حذر الله أولياءه من اتباع الهوى؛ فقال سبحانه لنبيه داود–ﷺ–: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ص: ٢٦.

(٣) **اتباع الظن؛** فهو من مصادر التلقي الفاسدة:

قال الله تعالى مبيناً ذلك عنهم: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ الأنعام: ١١٦. وقال سبحانه: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ يونس: ٣٦، وهذه الآية فيها ردٌ على

---

(١) انظر: تفسير السعدي ص٣٩٠.

(٢) هذا ليس على إطلاقه، بل أغلبي، وإلا فقد يهذب الله للإنسان هواه، فيكون تبعاً لما جاء به محمد–ﷺ–؛ كما قال النبي–ﷺ–:"لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به"[أخرجه البغوي في شرح السنة١/٢١٣]، قال النووي: حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح؛[الأربعين النووية مع شرحه جامع العلوم والحكم٣٨٦حديث٤١]، وقال ابن حجر:رجاله ثقات[فتح الباري١٣/٢٨٩]، وقال ابن رجب: تصحيح هذا الحديث بعيد جداً[جامع العلوم والحكم٣٨٦حديث٤١]، وقال الألباني:سنده ضعيف. [مشكاة المصابيح١/٣٦حديث١٦٧].

(٣) نظم الدرر٧/٣٢٤.

سالكي هذا المنهج، كما في قوله تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ النجم: ٢٨. وقد أدى سلوك هذا المنهج إلى الاعتقادات الباطلة، كاعتقادات اليهود والنصارى في عيسى-عليه السلام-؛ قال الله تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾ النساء: ١٥٧. وأدى إلى الشرك، وتحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل؛ قال الله تعالى ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ الأنعام: ١٤٨. ولقد حذر الله المؤمنين من سلوك هذا المنهج في أي شيء، ولو كان يسيرا، كظن الإنسان في أخيه المسلم سوءاً؛ فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ الحجرات: ١٢.

(٤) اتباع ما عليه الزعماء والعلماء؛ بإطلاق

فإنه معدود في القرآن من مصادر التلقي الفاسدة؛ وقد سبق بيان ذلك في موضوع طاعة الزعماء والعلماء والأصدقاء، والأنظمة والتشريعات؛ في معصية الله[1]، ضمن مبحث: أسباب النجاة الوهمية.

(٥) انتهاج ما عليه الأكثر ولو كان باطلاً، وترك ما عليه الأقل وإن كان حقاً:

قال الله تعالى-عن ثمود-: ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ القمر: ٢٤، وقال فرعون ما ذكره الله عنه بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ الشعراء: ٥٤. وقد حذر الله المؤمنين من انتهاج هذا النهج؛ فقال سبحانه: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ الأنعام: ١١٦.

---

(١) انظر: هذه الرسالة ص٥٤٠.

ضرورة وضع ضوابط لهذه المصادر تعصم من زللها:

إن مصادر التلقي عند هؤلاء فاسدة، ولم تضبط بشيء يعصم من زللها إن زلت، وكان يجب ضبطها كما هي الحال عند المؤمنين الذين التزموا بما أمر به الوحي في ذلك، فمصادر التلقي عند من التزم أوامر الشرع؛ إما معصومة-وهما الكتاب والسنة-، أو مضبوطة بهذين المصدرين العاصمين، فمرجعهما إلى معصوم(١). فمثلاً اتباع الآباء والأسلاف حسنٌ إذا كان في أمر حسنٍ(٢)، واتباع الزعماء والعلماء حسنٌ إذا كان في طاعة الله ورسوله-ﷺ-لا في المعصية(٣)،والعمل على تكثير سواد المسلمين وعدم الفرقة والشذوذ عنهم حسنٌ إذا كان جمع على الحق(٤)، وإذا ضبط الهوى فكان تبعاً لما جاء به محمدٌ-ﷺ-كان حسناً(٥).

---

(١) انظر: المبحث الأول من هذا الفصل؛ ص٦٠٨.

(٢) إذا أتبع الآباء والأسلاف لمتابعتهم الوحي، فشيء حسنٌ؛ كما قال يوسف-عليه السلام-لصاحبي السجن؛ ما ذكره الله عنه بقوله: "وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ (يوسف:٣٨)؛ فبيّن أنه اتبعهم في الملة السوية؛ لأنهم غير مشركين.

(٣) قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (النساء:٥٩)، فأمر بطاعتهم في طاعة الله لا في المعصية.

(٤) قال الله تعالى:{ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ}(آل عمران:١٠٣)، فجمع الكلمة مطلوب إذا كان على الحق.

(٥) قال أبو سليمان الداراني: "ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة"[أخرجه عنه ابن عساكر في تاريخ دمشق٣٤/١٢٧].

٦- عدم أهلية من تطلب منه النجاة لتحقيقها:

حَسُن تأخير دراسة هذا الضابط مع أنه الأهم؛ لسعة الكلام عنه، فإن له جوانب متعددة، وهناك آياتٌ كثيرة تحدثت عن كل جانب من جوانب هذا الضابط.

إن الخلل الناتج من عدم الانتباه إلى هذا الضابط؛ خطيرٌ جداً؛ فقد يصل إلى درجة الكفر الأكبر، أو الشرك الأكبر، وقد يكون كفراً أو شركاً أصغر، وقد يكون معصية عظيمة، وعقوبة أياً من هذه الأمور شديدة.

إن عدم أهلية من تطلب منه النجاة، تكون نتيجة لعدم قدرته أصلاً، أو لضعف قدرته أمام من يريد إهلاكهم. وقد تم تناول تطبيقات هذا الضابط في مبحث أسباب النجاة الوهمية، فإن منها-كما سبق-: الاعتماد على الآلهة المفتراة[1]، وطاعة الزعماء والعلماء في معصية الله[2]؛ فإن الأول لا قدرة له أصلاً، والثاني قد يكون عنده قدرة، ولكن قدرة الله أعظم، ولا يمكن أن تفعل قدرتهم شيئاً أمام قدرة الله تعالى.

وقد جاءت آياتٌ كثيرة في القرآن فيها ضبطٌ لهذا الضابط العظيم، وفيها بيانٌ وإيضاح للأمور التي لا قدرة لأحدٍ غير الله عليها. ومن خلال دراسة تلك الآيات يمكن **ضبط قواعد هذا الضابط بما يلي:**

القاعدة الأولى:ما كان من أمور الآخرة:

فإن أمور الآخرة لا قدرة لأحد غير الله عليها، وذلك كمغفرة الذنوب، والإنجاء من النار، والإدخال إلى الجنة، والتسليم من فزع يوم القيامة، وغير ذلك من أمور الآخرة التي يحتاج الناس إلى النجاة منها يوم القيامة. وقد بيّن الله تعالى في كتابه هذا الأمر بآيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ الانفطار: ١٩؛ قال قتادة:"ليس ثم

(١) انظر: ص٤٨٩.

(٢) انظر: ص٥٤٠.

أحد يومئذ يقضي شيئا، ولا يصنع شيئا إلا ربّ العالمين"[١]، وقال الواحدي:"لا تملك أن تنجيها من العذاب{والأمر يومئذ لله }وحده"[٢].

وقوله تعالى:﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ الدخان: ٤١؛ قال الطبري:"يقول:لا يدفع ابن عمّ عن ابن عمّ، ولا صاحب عن صاحبه شيئا من عقوبة الله التي حلَّت بهم من الله{وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ} يقول: ولا ينصر بعضهم بعضا، فيستعيذوا ممن نالهم بعقوبة كما كانوا يفعلونه في الدنيا"[٣]، فيظهر في ذلك اليوم أن الله وحده هو الذي"يملك كشف تلك الكروب والهموم عنه، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئا سوى ربه تعالى"[٤].

ومن الآيات في ذلك قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ **الفاتحة: ٤** ؛ فإنها على القراءتين:(مالك)، و(ملك)[٥]، تدل على انفراد الله بالملك والحكم في ذلك اليوم ظاهراً وحقيقة، أما في الدنيا فإن الملك حقيقة لله وحده، وأما ظاهراً فيوجد من يملك أشياء قد ملَّكه الله. قال الطبري:"تأويل قراءةِ:{مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}، أن لله المُلْك يوم الدين خالصًا دون جميع خلقه، الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكًا جبابرة ينازعونه الملك، ويدافعونه الانفرادَ بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية؛ فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الصَّغَرة الأذِلّة ، وأنّ له –من دُونهم، ودون غيرهم – الملك والكبرياء، والعزة والبهاء"[٦]. وأما قراءة:{مالك يوم الدين}،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره٢٤/٢٧٣.

(٢) الوجيزص١١٨١.

(٣) تفسير الطبري٢٢/ ٤٢.

(٤) انظر: تفسير القرطبي١٩/٢٢٥.

(٥) "قرأ عاصم والكسائي:{مالك...}بألف، وقرأ الباقون بغير ألف".[حجة القراءات؛ ص٧٧].

(٦) تفسير الطبري١/١٤٩.

فقال ابن عباس:"لا يملك أحدٌ في ذلك اليوم معهُ حكمًا كمِلْكِهم في الدنيا"[١]، يعني: أن مُلكية الله في ذلك اليوم مُلكية ظاهرة، فهو يدبر ويأمر وينهى، ولا تخفى على أحد كما كانت الحال في الدنيا، حيث يخفى تملكه الأمر على الغافلين. وهذا المعنى الذي ذكره الله في هذه الآية قد ذكره في آياتٍ أخرى، منها قوله تعالى:﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ غافر: ١٦، قال الطبري:"يقول الربّ: لمن السلطان اليوم؟ وذلك يوم القيامة، فيجيب نفسه فيقول:{لِلَّهِ الْوَاحِدِ}[٢]"، "فقد ذهب كل سلطان وكل مُلْك، والمُلْك يومئذ لله الواحد القهار"[٣]، ومُلك الله تعالى للأمر لا يختص بذلك اليوم، ولكن غفلة الخلق عن حقيقة الحال تنكشف في ذلك اليوم "فإذا كشف الغطاء شُهد الأمر كذلك، كما كان كل يوم"[٤]. وقول الله تعالى:﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ الفرقان: ٢٦، وقوله سبحانه:﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ الحج: ٥٦.

فهذه الآيات بينت انتفاء مُلكية أحدٍ لشيء من الأمر يوم القيامة غير الله، فهو المالك وحده لا شريك له، ففيها نفي الملكية على العموم. وهناك آياتٌ خصصت بالذكر أشياء معينة، كمغفرة الذنوب، والشفاعة؛ فإنهما لكثرة الخطأ فيهما، قد جاءت آيات خاصة تبين انفراد الله تعالى بهما، فالشفاعة لا أحد يملك شيئاً منها البتة غير الله، وإن كان بعض الناس يظن أن الشفاعة يملك من أذن الله له فيها شيئاً منها، وهذا ظنٌ خاطئ. وقد جاء بيان ذلك

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره١/ ١٤٩.

(٢) تفسير الطبري٢١/٣٦٦.

(٣) أضواء البيان ٨/٤٥٣.

(٤) البحر المديد٦/٤٥٠.

في آياتٍ كثيرة منها قوله تعالى:﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ الزمر:٤٤، فلا يملكها إلا هو وحده ، ولا يملك أحدٌ غيره منها شيئاً البتة. وليس هذا نفياً للشفاعة، ولكنه نفي لملك أحدٍ – غير الله–شيئاً منها الشفاعة بإذن أو بغيره. فمن أذن الله له أن يشفع فإنه يشفع، لكن من غير أن يملك منها شيئاً. أما قول الله تعالى:﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ الزخرف: ٨٦، فإن الاستثناء هنا منقطع ومَنْ جَعَلَ الِاسْتِثْنَاءَ مُتَّصِلاً فقوله لَا يَلِيقُ بِالْقُرْآنِ وَلَا يُنَاسِبُهُ[١]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"المالك للشيء: هو الذي يتصرف فيه بمشيئته وقدرته. والرب تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه؛ فلا يملك أحد من المخلوقين الشفاعة بحال. ولا يقال في هذا "إلا بإذنه" إنما يقال ذلك الْفِعْلِ[٢]، فَيُقَالُ:{مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلابِإِذْنِهِ}، وأما في الملك: فلا يمكن أن يكون غيره مالكا لها؛ فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال، ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالكا لها؛ بل هذا ممتنع كما يمتنع أن يكون خالقا وربا"[٣]. وهذا البيان لا مزيد عليه، وبه يتبين خطأ من جعل –من المفسرين، أو محققي بعض التفاسير– ملك الشفاعة يكون لمن أذن له[٤]، ويتضح أنه قول باطلٌ. وأشنع من هذا ما بناه أناسٌ على هذا الخطأ فصاروا يسألون الشفاعة ويطلبونها من الرسول–ﷺ–، أو من غيره من الملائكة والأنبياء والصالحين؛ على ظن أنهم يملكون من الشفاعة شيئاً فهم يطلبون منهم ما يملكونه بزعمهم، فوقعوا في الشرك الأكبر نتيجة هذا الفهم الخاطئ، فوقع هؤلاء فيما وقع فيه مشركو العرب الأولين الذين بعث في زمنهم النبي–ﷺ–، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن:"اتخاذ الشفعاء هو دين المشركين من العرب وغيرهم، فافهم، واعتبر ما

(١) انظر: مجموع الفتاوى١٤/٤٠٣.

(٢) في الفعل؛ يعني أنه يشفع إذا أذن له؛ لكن من غير ملكٍ.

(٣) مجموع الفتاوى١٤/٤٠٥.

(٤) انظر البحر المديد٨/٣٩٢.

ذكره الله عنهم بقوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يونس:١٨، إلى قوله:﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾يونس:١٨، فنزّه نفسه عن شركهم هذا، الذي هو اتخاذ الشفعاء، والتوجه إليهم، وطلب الشفاعة منهم.... فدلت هذه الآيات على أن من فعل ذلك، فهو مشرك بالله، كافر به... فالشفاعة لمن له ملك السماوات والأرض، ومرجع الخلق إليه سبحانه وتعالى...قال الله تعالى:﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الأنعام: ٥١ فهؤلاء هم أهل الإخلاص، الذين لم يتخذوا من دون الله شفيعا يسألونه ويرغبون إليه؛ بل قصروا رجاءهم ودعاءهم، ورغبتهم ورهبتهم، وجميع أنواع العبادة، عليه تعالى وتقدس؛ فهو المستحق لذلك دون كل ما سواه. فلا تطلب الشفاعة في هذه الدار، إلا من مالكها الذي لا تحصل إلا بإذنه، وهو الله تعالى"[(١)]. وبهذا يتبين بجلاء أن الشفاعة ملكٌ لله وحده لا شريك له.

وقريبٌ من الشفاعة التوبة ومغفرة الذنوب، فليس هناك من يتاب إليه، أو يغفر الذنوب إلا الله، كما قال الله تعالى﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ الرعد: ٣٠، فتقديم الجار والمجرورفي قوله:{إليه}؛ "لإفادة الاختصاص"[(٢)]، فلا يتاب إلى غيره. عنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ[(٣)] أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- أُتِيَ بِأَسِيرٍ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ،

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية١١/٤٣١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير١٢/١٨٥.

(٣) الأسود بن سريع(...- ٤٢هـ) ابن حمير بن عبادة بن النزال، أبو عبد الله، التميمي السعدي. صحابي. غزى مع النبي -ﷺ- أربع غزوات، كان في الجاهلية شاعرا مشهوراً، وكان في أول الإسلام قاصا، وهو أول من قص في مسجد البصرة، ولما قتل عثمان ركب سفينة، وحمل معه أهله وعياله؛ فانطلق فما رئي بعد.[انظر: مشاهير علماء الإسلام ص٦٧، ومعرفة الصحابة١/٢٧٠، والإصابة١/٧٤].

وَلا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ-ﷺ-:"عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ"(١). والآية السابقة تبين هذا، كما يبينه -أيضاً-قول الله تعالى:﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ آل عمران: ١٣٥، فإن هذه الآية تبين"اختصاصه هو -جل وعلا- بغفران الذنوب"(٢)، فمن ظنّ أن الله أعطى لأحدٍ ملك مغفرة الذنوب، أو أن أحداً يشارك الله في ذلك، فظنه وبالٌ عليه في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإنه يتعلق بالأوهام والخرافات التي لا حقيقة لها، وأما في الآخرة فالهلاك الدائم السرمدي جزاء شركه بالله حين أعطى شيئاً من خصائص الله لغير الله.

ومن عرف الحق كان هذا سبباً في مغفرة ذنوبه، قال الله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦، فجازاهم على استغفارهم ربهم، وجزمهم بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله بمغفرة ذنوبهم. وأوضح النبي-ﷺ-ذلك حين قال:"سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي؛ فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، إِذَا قَالَ حِينَ يُمْسِي فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَإِذَا قَالَ حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ مِثْلَهُ"(٣).

فدلت هذه الآيات العظيمة على أن أمور الآخرة وما يتعلق بها لا تطلب إلا من الله وحده لا شريك له، ومن طلب النجاة من مصاعب يوم القيامة، وبقية أمور الآخرة من غير الله فهو مشرك الشرك الأكبر، لأنه حينها طلب ما لا يقدر عليه إلا الله من غير الله.

القاعدة الثانية: ما كان من خصائص الربوبية

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده٢٤/٣٥٣حديث رقم(١٥٥٨٧). قال الهيثمي: فيه محمد بن مصعب؛ وثقه أحمد وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح. [مجمع الزوائد١١/٧٧]، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على مسند الإمام أحمد: إسناده ضعيف لانقطاعه:الحسن؛ لم يسمع من الأسود بن سريع.

(٢) أضواء البيان ٧/٤٢.

(٣) أخرجه البخاري٥/٢٣٣٠حديث٥٩٦٤، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا أصبح.

كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وتصريف الكون، وما كان من هذا الباب فلا يطلب إلا من الله، وطلبه من غير الله طلبٌ له من غير أهله. فلا يصلح لمن كان عقيماً-مثلاً- أن يطلب النجاة من العقم من غير الله، وهكذا بقية خصائص الربوبية، وقد دل القرآن بآيات كثيرة على هذا.

فالرزق من الله وحده لا شريك له، قال الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ الذاريات: ٥٨، ففي الآية"قصرٌ، لوجود ضمير الفصل، أي: لا رزاق، ولا ذا قوة، ولا متين إلا الله"[١]، ففيه إثبات أن الله هو الرازق وحده. ومثلها قول الله تعالى:﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ هود: ٦. وفي آية أخرى ينفي الله تعالى أن يكون ملَّك أحداً غيره الرزق، وذلك في قوله تعالى-ناقلاً قول إبراهيم-عليه السلام-لقومه:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ العنكبوت:١٧، فنكَّر الرزق عندما نفاه عن المعبودات من دون الله؛ فقال:{رزقاً}، وهو نكرة في معرض النفي فتعم، أي: لا رزق عندهم أصلاً، وعرَّفه عند الإثبات مع الله تعالى في قوله:{عند الله الرزق} أي: كل الرزق عنده فاطلبوه منه[٢]. وأثبتت آية أخرى نفس المعنى، وذلك في قوله سبحانه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ فاطر: ٣، أي: فهو "المستقل بالخلق والرزق"[٣]. فهذه الآيات في الرزق، وهو أحد خصائص الربوبية، فمن طلبها من غير الله فقد طلبها من غير أهلها.

---

(١) التحرير والتنوير٢٧/٤٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب٢٥/٤١، واللباب١٥/٣٢٨.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/٥٣٣.

ومن خصائص الربوبية: الخلق، وقد بيّن الله انتفاءه عن غيره في آياتٍ كثيرة؛ منها قوله سبحانه:﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ الرعد: ١٦، قال الواحدي:" يعني : أجعلوا لله شركاء خلقوا مثل ما خلق الله فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم ؟ وهذه استفهام إنكار أي : ليس الأمر على هذا حتى يشتبه الأمر بل الله سبحانه هو المتفرد بالخلق"[1]. ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ الزمر: ٦٢، وقوله سبحانه:﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) ﴾ غافر: ٦٢.

ومن خصائص الربوبية الملك؛ فالملك لله وحده. قال الله تعالى:﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) ﴾ سبأ: ٢٢؛ قال الطبري: وصف الله في هذه الآية الذين يُدْعَون من دونه فبيّن إنهم لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض؛ من خير، أو شر، أو ضر، أو نفع، فكيف يكون إلهًا من كان كذلك؟[2].

ومثل ما سبق؛ الإحياء والإماتة، قال سبحانه:﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) ﴾ غافر: ٦٨، وقال سبحانه:﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ المؤمنون: ٨٠، وقال سبحانه:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي

(١) الوجيز ص٥٦٨.

(٢) تفسير الطبري٢٠/٣٩٤.

حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ البقرة: ٢٥٨، وقال سبحانه:﴿ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ يونس: ٥٦.

وأما الآيات التي فيها نسبة شيء من ذلك إلى غير الله، كقول الله تعالى:﴿ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾ المائدة: ٣٢ ، وقوله سبحانه:﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ المؤمنون: ١٤ ، وقوله سبحانه:﴿ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ الصافات: ١٢٥ ،وقوله :﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ الحج: ٥٨، وقوله:﴿ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ المؤمنون:٧٢، وقوله:﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ سبأ: ٣٩ ، وقوله:﴿ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ الجمعة: ١١، وقوله:﴿ وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ النساء: ٥ ، وقوله:﴿ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ البقرة: ٢٣٣ فهو من باب التجوز "فالله تعالى رازق حقيقة، وابن آدم رازق تجوزاً، لأنه يملك ملكا منتزعا"[١]، أو من باب إضافة الشيء إلى سببه"وكُلُّ مَن رزق غيره من سلطان، أو سيّد، أو زوج، أو غيره، فهو من رزق الله، أجراه على يد هؤلاء، وهو خالقُ الرزق، والأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق"[٢]، أو باعتبار ما يظنونه فـ"الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين"[٣].

(١) تفسير القرطبي١/١٧٨.

(٢) البحر المديد٦/١٣٦. وانظر: التحرير والتنوير٢٢/٨٣.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ١٦/٧٧.

القاعدة الثالثة: تصريف القلوب:

المتصرف في القلوب من الهداية والضلالة، والرشد والغواية، والحب والبغض، وغير ذلك من أحوال القلوب؛ هو الله وحده، فهو يهدي من يشاء؛ ولا أحد يضل من يهديه الله، وهو يضل من يشاء؛ ولا أحد يقدر أن يهدي من أضل الله، وهو الذي يلهم الإنسان رشده، ولو شاء لهدى الناس جميعاً.

وقد دلّ على هذا القرآن بآياتٍ كثيرة، قال الله تعالى:﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٩﴾ ﴾ الأنعام: ٣٩، قال الطبري:"أخبر تعالى ذكره أنه المضِلّ من يشاء إضلالَه من خلقه عن الإيمان إلى الكفر، والهادي إلى الصراط المستقيم منهم من أحبَّ هدايته، فموفّقه بفضله وطَوْله للإيمان به، وترك الكفر به وبرسله وما جاءت به أنبياؤه، وأنه لا يهتدي من خلقه أحد إلا من سبق له في أمّ الكتاب السعادة، ولا يضل منهم أحد إلا من سبق له فيها الشقاء، وأنّ بيده الخير كلُّه، وإليه الفضل كله، له الخلق والأمر"(١)، وقال السعدي:"هو المنفرد بالهداية والإضلال، بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته"(٢)، "فقوله:{من يشإ الله يضلله} دل على أنه شاء ضلال الكافر وأراده لينفذ فيه عدله ، وقوله:{ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم} أي: على دين الإسلام، لينفذ فيه فضله"(٣)، وليس في الآية نفيٌ لمشيئة العبد، لكن في الآية تبيين الحق من جميع جوانبه، فتبين أن مشيئة العبد ليست مستقلة، وإنما هي مشيئة مصنوعة مخلوقة، شاءها الله تعالى، وقد أوضح الله تعالى ذلك بأوضح بيان فقال سبحانه تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ التكوير: ٢٩ "فأخبر الله أنا لا نشاء شيئاً إلا قد شاء الله أن نشاءه"(٤)، وقد قال الله سبحانه:﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٣ ...وقد زعمت القدرية أنه يكون من الشر مالا يشاء

(١) تفسير الطبري١١/٣٥٠.

(٢) تفسير السعدي ص٢٥٦.

(٣) تفسير القرطبي٦/٤٢٢.

(٤) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية١/٤٢١.

الله، كما قالت ذلك المجوس، وزعموا أنهم يملكون الضر والنفع لأنفسهم رداً لقوله الله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ الأعراف: ١٨٨ ، وإعراضاً عن القرآن وعما أجمع المسلمون عليه، وزعموا أنهم ينفردون بالقدرة على ما لم يصفو الله بالقدرة عليه؛ كما أثبت المجوس للشيطان من القدرة على الشر ما لم يثبتوه لله -ﷻ- فكانوا مجوس هذه الأمة"[١].

ومن الآيات الدالة على انفراد الله تعالى بتصريف القلوب؛ قوله سبحانه:﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ الأنفال: ٢٤، "أي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه"[٢]، وقيل:"يحول بين المؤمن وبين الكفر، ويحول بين الكافر وبين الإيمان"[٣]، أو"يحول بين الكافر وبين طاعته، ويحول بين المؤمن وبين معصيته"[٤]، وحاصل هذه الأقوال يرجع إلى معنى واحدٍ وهو أن الله هو المتحكِّم في القلوب، وهو المدبر لها، وهذا ما اختاره ابن جرير رحمه الله حيث قال:"وأولى الأقوال بالصواب عندي في ذلك؛ أن يقال: إن ذلك خبرٌ من الله عز وجل أنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن يُدرك به شيئًا من إيمان أو كفر، أو أن يَعِي به شيئًا، أو أن يفهم، إلا بإذنه ومشيئته. وذلك أن "الحول بين الشيء والشيء"، إنما هو الحجز بينهما، وإذا حجز جل ثناؤه بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أو يفهمه، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبَه إدراكَه سبيلٌ. وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك قول من قال: "يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان"، وقول من قال: "يحول بينه وبين عقله"، وقول من قال: "يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه"، لأن الله عز وجل إذا حال بين عبد وقلبه، لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حيل بينه وبينه ما مُنِع إدراكه به على ما بيَّنتُ"[٥]. ثم بيّن أنه يجب عدم تخصيص الآية بمعنى واحدٍ مما ذُكر، فقال:"ينبغي أن يقال: إن الله عم

---

(١) انظر: المرجع السابق.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره١٣/٤٧١عن السدي.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره١٣/٤٦٨-٤٧٠، عن جماعة منهم: ابن عباس، والضحاك.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره١٣/٤٦٨-٤٧٠، عن ابن عباس، والضحاك، وسعيد بن جبير.

(٥) تفسير الطبري١٣/٤٧١.

بقوله: {واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه} الخبرَ عن أنه يحول بين العبد وقلبه، ولم يخصص من المعاني التي ذكرنا شيئًا دون شيء، والكلام محتمل كل هذه المعاني، فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجب التسليم له"[1]. ومن الآيات الدالة على أن كل ذلك بيد الله وحده؛ قوله سبحانه:﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ الأعراف: ١٧٨، وقوله سبحانه:﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ الشمس: ٧ – ٨، وقوله سبحانه:﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ الكهف: ١٧، وقوله سبحانه:﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ﴾ الإسراء: ٩٧، فهذه الآيات الأربع أوضحت أن كلاً من الهداية والضلالة إنما هو بيد الله، لا بيد غيره "ويؤخذ من هذه الآيات وأمثالها في القرآن: بطلان مذهب القدرية: أن العبد مستقل بعمله من خير أو شر، وأن ذلك ليس بمشيئة الله بل بمشيئة العبد؛ سبحانه -جل وعلا- عن أن يقع في ملكه شيء بدون مشيئته، وتعالى عن ذلك علواً كبيراً"[2].

ومن زيادة تأكيد القرآن لتقرير أن الهداية والضلالة بيد الله وحده، لم يكتف بنحو الآيات السابقة التي جمعت ذكر الهدى والضلالة، بل هناك آيات وردت بتأكيد الضلالة بمفردها، وآياتٌ أخرى أفردت ذكر الهداية. ومن الآيات التي أفردت ذكر الضلالة وحدها قوله تعالى:﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ النساء: ٨٨، قال الشنقيطي:" أنكر تعالى في هذه الآية الكريمة على من أراد أن يهدي من أضله الله وصرح فيها بأن من أضله الله لا يوجد سبيل إلى هداه، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ المائدة: ٤١ ، وقوله: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ الأعراف: ١٨٦ ، "ويؤخذ من هذه الآيات أن العبد ينبغي له كثرة التضرع

(١) المرجع السابق١٣/٤٧٢.

(٢) أضواء البيان٣/٢٢٣.

والابتهال إلى الله تعالى أن يهديه ولا يضله، فإن من هداه الله لا يضل، ومن أضله لا هادي له"[١]، وقال الله تعالى-في المنافقين-:﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴾ النساء: ١٤٣، فـ"المنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادي لهم، ولا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا مُعَقّب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون"[٢]، وبيّن الله تعالى تبيين الأنبياء -عليهم السلام- ذلك لأقوامهم، كقوله تعالى-عن نوح عليه السلام-:﴿ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤ ﴾ هود: ٣٤، يعني أنه"ليس بيدي توفيقكم إلى الهدى؛ وإن كان واضحاً جلياً لا لبس فيه، إن لم يهدكم الله جل وعلا إليه"[٣].

ومع ظهور معنى هذه الآية إلا أن المعتزلة غلوا في مذهبهم وتطرفوا في التأويل غاية التطرف حين قالوا: "إنَّ نوحاً - عليه الصلاة والسلام - إنَّما ذكر هذا الكلام؛ ليدل على أنَّهُ تعالى ما أغواهُم، بل فوَّضَ الاختيار إليهم"[٤]. ومن طريف ما يروى أن طاوساً[٥] جاءه رجل في المسجد الحرام، وكان متهما بالقدر، وكان من الفقهاء الكبار، فجلس إليه؛ فقال له طاوس: تقوم أو تقام؟ فقيل لطاوس: تقول هذا لرجل فقيه! فقال: إبليس أفقه منه، يقول إبليس: رب

---

(١) أضواء البيان١/٢٤٧.

(٢) تفسير ابن كثير٢/٤٤١.

(٣) أضواء البيان٢/١٨٧.

(٤) مفاتيح الغيب١٧/١٧٥.

(٥) طاوس بن كيسان(...-١٠٦هـ) الهمداني الخولاني، أبو عبد الرحمن، وأصله فارسي. تابعي. عابدٌ، زاهدٌ، فقيه، عالمٌ. أدرك خمسين صحابياً، أو أكثر. كان جليل القدر، نبيه الذكر، وكان يقول: ما أظن أن أحداً ينام في السَحَر. وكان من أشد الناس تنزهاً عما بأيدي الناس، وكان هو وأصحابه يبتهلون بالدعاء بعد العصر، ولا يكلمون أحداً إلى الغروب. مرض وهو حاج يوم التروية بمنى، وتوفي بمكة، وعمره بضع وتسعون. وصليَّ عليه بين الركن والمقام.[انظر: مشاهير علماء الأمصار ص ١٩٨، صفة الصفوة٢/٢٨٤، ووفيات الأعيان٢/ ٥٠٩]

بما أغويتني، ويقول هذا: أنا أغوي نفسي"[١]. قال القرطبي:"خالف الإمامية، والقدرية، وغيرهما؛ شيخهم إبليس الذي طاوعوه في كل ما زينه لهم، ولم يطاوعوه في هذه المسألة، ويقولون: أخطأ إبليس، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغواية إلى ربه، تعالى الله عن ذلك[٢]؛ فيقال لهم: إبليس وإن كان أهلا للخطأ فما تصنعون في نبي مكرم معصوم، وهو نوح-عليه السلام-حيث قال لقومه:"ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون"[٣].

وهناك آياتٌ أفردت ذكر أن الهداية بيد الله وحده، وأنه لا أحد غيره يقدر أن يهدي أحداً، ومن تلك الآيات؛ قول الله تعالى-لرسوله ﷺ-:﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ القصص: ٥٦، فحتى رسول الله-ﷺ-لا يستطيع أن يهدي أحداً لم يرد الله هدايته. وقوله تعالى:﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾ الحجرات: ٧ – ٨، فبينت هذه الآية أن ذلك من فضل الله وحده لا شريك له. وقوله سبحانه:﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ الحجرات: ١٧.فالهداية للإيمان منّة من الله على الإنسان، وليست هداية الإنسان من فعل نفسه، بل هي فضل من الله عليه.

---

(١) أخرجه الثعلبي بإسناده عن طاوس.[انظر: الكشف والبيان٤/٢٢٠].

(٢) لا يُنسَب الشر والإضلال إلى الله تعالى، وإن كان هو الذي قدرهما، لكن لا ينسبان إليه؛ لوجهين؛ الوجه الأول: من جهة علته الغائية، والثاني: من جهة سببه؛ أما العلة الغائية، فإن الله تعالى إنما قدَّر الشر والضلالة لحكمة؛ فباعتبارها يكون خيراً عموماً، وإن كان شراً إضافياً؛ كالسارق تقطع يده، فإنه خيرٌ للعموم؛ لما فيه من نشر أمن الناس على أموالهم، وهو شرٌ بالنسبة لمن قطعت يده. وأما جهة السبب؛ فإن السيئات إنما قُدِّرت على هذا العبد لسببٍ، قد لا نعلمه.[انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية١٤/٢٩٩].

(٣) تفسير القرطبي٧/١٧٥.

إن الله تعالى إذا هدى أحداً إلى الحق ، فلا يستطيع أحدٌ إضلاله ، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الصافات: ١٦١ ـ ١٦٣

وأما الآيات التي فيها نسبة الهداية إلى غير الله، كقوله تعالى في وصف رسوله-ﷺ-: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ الشورى: ٥٢، وقوله سبحانه: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ الأعراف: ١٥٩ ،وقوله: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ الأعراف: ١٨١ ، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ السجدة: ٢٤ وقوله في وصف آل إبراهيم: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ الأنبياء: ٧٣؛ فإن المراد بكل هذه الآيات هداية الدلالة والبيان والإرشاد كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ الأنعام: ٩٧، فالنجوم تهديهم في ظلمات البر والبحر، لأنهم يستدلون بها على الأماكن والأزمنة والاتجاهات. ومن هنا يُعلم "أن الهدى المنفي عنه-ﷺ-، في قوله تعالى: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}، هو هدى التوفيق؛ لأن التوفيق بيد اللَّه وحده، وأن الهدى المثبت له-ﷺ-في قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، هو هدى الدلالة على الحق والإرشاد إليه"(١).

تحقيق الحق في هذا الضابط:

بهذه الآيات الكثيرة البينة الواضحة الدلالة المذكورة في هذه القاعدة؛ استدل أهل السنة والجماعة على أن تصريفات القلوب بيد الله وحده، ولهذا كان النبي-ﷺ-يَقُولُ «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ؛ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ

(١) انظر: أضواء البيان٦/١٥٤.

اللَّهِ -ﷺ-«اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[١]، فهو سبحانه يهدي من يشاء فضلاً منه وإحساناً، ويضل من يشاء حكمة منه وعدلا، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فصلت: ٤٦، وليس ذلك بيد أحدٍ غير الله تعالى، ولا يستطيع الإنسان هداية نفسه أبداً، ولكن الله هو الذي يهديه إن شاء، ويقلِّب قلبه كيف يشاء. وقد سُئلت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها: ما كان أكثر دعاء رسول الله-ﷺ-إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. قالت: قلت: يا رسول الله ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ قال:"يا أم سلمة! إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله؛ فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ"[٢].

وبهذا يتبيِّن بطلان رأي المعتزلة الذين قالوا: إن الله قد ألهمه الاثنين معاً –الخير والشر– وهو يشاء ما يشاء منهما، دون مشيئة الله لهذا المعين. وقد بيّن رأيهم وبطلانه شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – حيث أفاد أن النفس من لوازمها الإرادة والحركة؛ فإنها حية حياة طبيعية، فإن أرادت الله تعالى، والخير؛ فذلك من تمام إنعام الله عليها، وإن خَلَتْ من إرادة الخير أرادت الشرَّ ولابد، وإن لم تُرِدْ الله أرادت غيره ولابد، والقدرية يعترفون بهذا، وبأن الله خلق الإنسان مريدا، لكن يجعلونه مريدا بالقوة والقبول، أي: قابلا لأن يريد هذا وهذا، وأما كونه مريدا لهذا المعين، وهذا المعين، فهذا عندهم ليس مخلوقا لله، وغلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً؛ بل الله خالق هذا كله، والله سبحانه جعل إبراهيم وأهل بيته أئمة يدعون بأمره[٣]، وجعل آل فرعون أئمة يدعون إلى النار[٤]،[٥].

---

(١) أخرجه مسلم(٤/٢٠٤٥)حديث(٢٦٥٤) كتاب القدر، باب تصريف الله القلوب كيف شاء.

(٢) أخرجه الترمذي(٥/٥٣٨)حديث(٣٥٢٢)كتاب الدعوات عن رسول الله -ﷺ-، باب (٩٠)، وقال الترمذي: حسن، وقال الألباني في تعليقه على سنن الترمذي: صحيح.

(٣) قال الله تعالى عنهم: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)الأنبياء: ٧٢ – ٧٣

(٤) قال الله تعالى عنهم: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ) القصص: ٤١

(٥) انظر: مجموع الفتاوى٨/٢٠٦، و١٤/٢٩٨.

إبطال رأي المعتزلة في هذا الضابط:

تمسك المعتزلة لعقيدتهم بما ظنوه ظاهر بعض الآيات مثل قوله تعالى:"﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦. وأدلة أخرى ظنوها عقلية، مثل قولهم:"لو خلقهم للنَّارِ لوجب أن يخلقهم ابتداء في النَّارِ؛ لأنَّه لا فائدة في أن يستدرجهم إلى النار بخلق الكفر فيهم"[1]. وقد جمع كثيراً من أدلتهم النقلية والعقلية الرازي، وردّ عليهم بما حاصله أنَّ المصير إلى التَّأويل إنَّما يَحْسُنُ إذا ثبت بالدَّليلِ العقليِّ امتناع حمل هذا اللَّفْظِ على ظاهره، وقد تبين بالدليل العقليِّ والنقلي أن الحقَّ ما دل عليه ظاهر اللفظ، فصار التَّأويل ههنا عبثاً. وأمَّا الآياتُ التي تمسكوا بها فمعارضة بالبحار الزاخرة من الآيات الدالة على مذهب أهل السنة[2]. وذكر ابن جرير –رحمه الله– شيئا من استدلال المعتزلة القدرية، ثم ردَّه–بما لا مزيد عليه–فقال عند تفسير قول الله تعالى:﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ الفاتحة:٧:"يظنُّ بعض أهل الغباء من القدريّة؛ أن في وصف الله جلّ ثناؤه النصارى بالضّلال، بقوله:{ولا الضالين} وإضافته الضَّلال إليهم دون إضافة إضلالهم إلى نفسه، وتركه وصفهم بأنهم المضلَّلون، كالذي وَصف به اليهود أنهم المغضوبُ عليهم؛ دلالةً على صحة ما قاله إخوانُه من جهلة القدرية–جهلا منه بسَعَة كلام العرب وتصاريف وُجوهه– ولو كان الأمر على ما ظَنّه الغبي الذي وصفنا شأنه، لوجب أن يكونَ شأنُ كلِّ موصوفٍ بصفةٍ أو مضافٍ إليه فعلٌ، لا يجوزُ أن يكون فيه سببٌ لغيره، وأنْ يكون كلُّ ما كان فيه من ذلك لغيره سببٌ، فالحقُّ فيه أن يكون مضافًا إلى مُسبِّبه ، ولو وَجب ذلك، لوجبَ أن يكون خطأ قولُ القائل: تحركت الشجرةُ؛ إذْ حرَّكتها الرياح. واضطربت الأرض؛ إذْ حرَّكتها الزلزلة، وما أشبهَ ذلك من الكلام الذي يطولُ بإحصائه الكتاب. وفي قول الله جلّ ثناؤه:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ يونس: ٢٢ –بإضافته الجريَ إلى الفلك، وإن كان جريها بإجراء غيرِها إيَّاها– ما دلّ على خطأ التأويل الذي تأوله من وصفنا قوله في قوله:{ولا الضالين}، وادّعائه أنّ في نسبة الله جلّ ثناؤه الضلالةَ إلى من نَسبها إليه من

(١) مفاتيح الغيب١٥/ ٥١. وانظر: واللباب٩/٣٩٧.

(٢) انظر: المرجعين السابقين.

النصارى تصحيحًا لما ادَّعى المنكرون: أن يكون لله جلّ ثناؤه في أفعال خلقه سببٌ من أجله وُجدت أفعالهم، مع إبانة الله عزّ ذكره نصًّا في آيٍ كثيرة من تنزيله؛ أنه المضلُّ الهادي، فمن ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الجاثية: ٢٣؛ فأنبأ جلّ ذكره أنه المضلّ الهادي دون غيره. ولكنّ القرآن نزلَ بلسان العرب، على ما قدَّمنا البيان عنه في أول الكتاب، ومن شأن العرب إضافة الفعل إلى من وُجد منه -وإن كان مسبِّبُه غيرَ الذي وُجِد منه- أحيانًا، وأحيانًا إلى مسبِّبه، وإن كان الذي وجد منه الفعل غيرُه. فكيف بالفعل الذي يكتسبه العبد كسبًا، ويُوجِده الله جلّ ثناؤه عَيْنًا مُنْشَأةً؟ بل ذلك أحرى أن يُضاف إلى مكتسبِه؛ كسبًا له، بالقوة منه عليه، والاختيار منه له -وَإلى الله جلّ ثناؤه، بإيجاد عينِه وإنشائها تدبيرًا[1].

وبهذه القاعدة يتبين أن من طلب النجاة من الضلالة والغواية من غير الله، فقد طلبها من غير أهلها؛ لأنها بيده سبحانه وحده. ومن طلب من غير الله هدايته، أو هداية أبنائه، أو هداية أحدٍ من الناس؛ فقد طلب منه ما لا قدرة له عليه، كما قال الله تعالى لرسوله-ﷺ-: ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ ﴾ الجن: ٢١، وقال له: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ الأعراف:١٨٨، وقال له:﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ يونس: ٤٩، فعلى المسلم أن يفزع في ذلك إلى ربه وحده ، ولا يعلق قلبه بغيره من ملَكٍ ، ولا رسول ، ولا نبي فضلاً عمن هو دونهم.

تنبيه: إن قيل: كيف يستقيم ما سبق والحب والبغض من تصريفات القلوب، وهما يحدثان بالسحر فإن فيه الصرف، والعطف؟

فيجاب: بأن الواقع يشهد أن الصرف والعطف ليس تصريفاً حقيقياً للقلب، وإنما هو تأثير على العقل، ولذا فإن صاحبهما لا يضبط تصرفه، بل يشعر بأنه يدفع دفعاً إلى ما سحر عليه، ويعيب العقلاء تصرفه حباً(عطفاً)، أو بغضاً(صرفاً).

---

(١) تفسير الطبري١/١٩٧.

والسحر سبب خبيث مؤذٍ للمسحور، حتى في العطف، فليس المعطوف في السحر يتلذذ بحبه كما يتلذذ صاحب الحب الطبيعي، وإنما يحس بأذى يدفعه إلى المعطوف عليه. ولذا كان السحر شرٌ كله بجميع أنواعه، كما قال الله سبحانه في وصفه: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ البقرة:١٠٢، فقد"أثبت الله أن السحر ضار ونفى أنه نافع"[١]، فـ"هو ضرر محض وخسران بحت"[٢]، وهو لهذا من نواقض الإسلام العشرة حتى ولو كان مجرد صرفٍ أو عطف؛ قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب-وهو يعدِّد نواقض الإسلام المجمع عليها-:"السابع: السحر، ومنه الصرف والعطف. فمن فعله أو رضي به، كفر"[٣].

القاعدة الرابعة: ما كان من باب القدرة الخفية غير المحسوسة

القدرة الخفية غير المحسوسة: هي نوعٌ من القدرة، يكون المتصف به قادرٌ على النفع أو الضر بمجرد مشيئة ذلك وإرادته من غير مباشرة ذلك بأدوات محسوسة[٤].

وهذه النوع من القدرة ليس لأحدٍ غير الله، فمن طلب النجاة من بلاء معين من غير الله معتقداً امتلاكه لها؛ فقد ضل ضلالاً مبيناً. إن الله تعالى وحده هو الذي ينعم -إذا شاء- فيعيد البصر للعميان، والسمع للصم، ونحو ذلك؛ بقدرته الخفية غير المحسوسة، ويوقع النقم-إذا شاء- فيسلب البصر من المبصر، ويسلب عقول العقلاء، ونحوها؛ بقدرته الخفية غير المحسوسة؛ فيفعل ذلك من غير سلاح، ولا دواء، ولا غيرهما من المحسوسات؛ لأنه يتصف بالقدرة الخفية غير المحسوسة، كما أنه يتصف بالقدرة الظاهرة المحسوسة، فينتقم، وينعم :فيبطش بإرسال الصواعق، أو بالأعاصير، ونحو ذلك، ويغيث بإنزال المطر، وغيرها من المحسوسات.

---

(١) أضواء البيان٤/٥٥.

(٢) فتح القدير١/١٨٦.

(٣) الدرر السنية١٠/٩٢.

(٤) انظر: تيسير العزيز الحميد،ص٢٤.

إن المشركين قد اعتقدوا اتصاف أصنامهم التي يدعونها من دون الله بالقدرة الخفية غير المحسوسة، ولذلك كانوا يرجونها ويخافون منها[١]، وكان هذا أحد أهم أسباب عبادتهم لها. فالمشركون يظنون أن الأصنام ستصيبهم بواسطة تلك القدرة الخفية غير المحسوسة بالمصائب إن استهانوا بعبادتها، وتشربت قلوبهم هذا المعنى، حتى أنهم لما جاءتهم الأنبياء بالتوحيد وصفوهم بالجنون، وأن هذه المصيبة فعلتها الأصنام جراء استهانتهم بها؛ كما قال قوم هود له ما ذكره الله عنهم بقوله: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ هود: ٥٤، يقولون: "ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبَل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها"[٢]. واعتقادهم اتصافها بهذا النوع من القدرة هو الذي دفع بهم إلى الخوف منها، وإلى رجائها.

ولقد عالج القرآن هذا الظن ببيان الحق الذي بيّنه الرسل وأتباعهم، وأن هذه الأصنام لا تملك هذا النوع من الضر أو النفع، في آياتٍ كثيرة؛ كقول الله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ الإسراء: ٥٦، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ يونس: ١٠٦. وقوله سبحانه: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ

---

(١) وهذا النوع من الخوف، هو الذي يسميه علماء العقيدة: خوف السر؛ قال الشيخ سلميان بن عبد الله:"معنى خوف السر هو: أن يخاف العبد من غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته وإن لم يباشره، فهذا شرك أكبر"[تيسير العزيز الحميد ص٢٤]، وذكر أقسام الخوف فقال:أحدها: خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك بقدرته ومشيئته؛ سواء ادعى أن ذلك كرامة للمخوف بالشفاعة، أو على سبيل الاستقلال؛ فهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير الله أصلا؛ لأن هذا من لوازم الإلهية، فمن اتخذ مع الله ندا يخافه هذا الخوف فهو مشرك، وهذا هو الذي كان المشركون يعتقدونه في أصنامهم وآلهتهم"[المرجع السابق ص٤٢٦].

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣٠.

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ الأنعام: ١٧. وكان الرسل وأتباعهم يكشفون هذه الحقيقة لكل الناس، وقد أمر الله رسوله-ﷺ-أن يبين لهم ذلك؛ فقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ الزمر: ٣٨.

إن مما قد يخفى على كثيرين أن خوف الإنسان من الجن أن يضروه بقدرة غير محسوسة، داخل في هذا، فهو من الشرك الأكبر المخرج من الإسلام، وأن الاستعاذة بهم هو شرك أكبر أيضاً، وكان المشركون يخافون من الجن لاعتقادهم اتصافهم بهذا النوع من القدرة، فكانوا إذا نزلوا وادياً يقولون: نعوذ بسيد هذا الوادي — يعني زعيم الجن فيه- من سفهاء قومه، ونحوها[1]، فذمهم الله على ذلك بقوله سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ الجن: ٦، قال الشيخ الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب: "الشرك نوعان:الأول: شرك أكبر يخرج من الإسلام، ويخلد صاحبه في النار إذا مات ولم يتب منه، وهو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله؛ كدعاء غير الله، والتقرب بالذبح والنذر لغير الله: من القبور، والجن، والخوف من الموتى أو الجن أن يضروه أو يمرضوه"[2]، ولا شكّ أن هذا الكلام خطير جداً.

ومما سبق يتبيّن أن الله تعالى قد أوضح هذه الحقيقة، وأن القدرة الخفية غير المحسوسة ليست إلا له سبحانه. ولم يكتف الله ببيان هذه الحقيقة بل بيّن أيضاً الواجب على الناس في هذا ، فقال: ﴿ وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ البقرة: ٤٠، فلا يخاف خوف السر المنبني على إعطاء غير الله القدرة الخفية غير المحسوسة ، ومن صرف هذا الخوف لغير الله فقد أشرك الشرك الأكبر المخرج من الإسلام. قال ابن باز- رحمه الله-:"خوف السر يختص به سبحانه؛ وهو كون الإنسان يخاف من أجل قدرة خاصة سرية ليست حسب الحس، ولذلك يعتقد عباد القبور أن بعض الناس له القدرة على التصرف في الكون مع الله جل وعلا، ويعتقدون ذلك أيضا في الأصنام

(١) أخرجه الطبري في تفسيره٢٣/٦٥٤-٦٥٥ عن ابن عباس وعددٍ من التابعين، بعبارات متقاربة.

(٢) الكبائر ص٢٨.

والجن وغيرها، **وهذا هو الشرك الأكبر**، ويعتقدون فيهم أيضا أن لهم القدرة على العطاء والمنع، وزيغ القلوب، وموت النفوس دون أسباب حسية ...أما خوف الأسباب الحسية، كما قال تعالى -في قصة أُحُد، لما قيل للنبي ﷺ :إن المشركين قد جمعوا لكم وسيرجعون إليكم فأنزل الله في ذلك: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥ ،...فهذا الخوف الحسي لا بأس به، لكن الخوف القلبي -خوف السر- هذا هو المنهي عنه، أما الخوف الحسي، مثل أن يخاف اللص أو السارق أو العدو، فيعد العدة من السلاح اللازم؛ كل هذا لا بد منه ولهذا قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ النساء: ٧١، وقال سبحانه في قصة موسى لما خرج من مصر خائفا من فرعون وقومه: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ القصص: ٢١؛ فإن هذا الخوف خوف حسي لا بأس به، لكن لا يجوز خوف العدو خوفا يمنع من جهاده ونصر الحق، وإنما يحمله هذا الخوف على الإعداد للعدو وأخذ الحذر"[1].

والعجيب أنه رغم بيان القرآن أن القدرة الخفية غير المحسوسة ليست بيد أحدٍ إلا الله، ورغم بيان القرآن أن اعتقاد كونه بيد غير الله إنما هو مخلفات اعتقادات أمم أهلكها الله، إلا أن هذا الاعتقاد الباطل لم ينته بنزول القرآن وبإرسال محمد-ﷺ-، بل استمر كأحد أكبر أسباب الشرك الأكبر، فما يحدث في هذه العصور المتأخر من دعاء الأولياء، وتعظيم القبور، ما هو إلا نظيرٌ لما كان يحدث من الأولين.

---

(١) شرح ثلاثة الأصول لابن باز-رحمه الله- ص٢٣.، وقال مكملاً ما سبق:"ومن أنواع الخوف الحسي: **الخوف الطبيعي** الذي جبل عليه الإنسان، مثل خوف الإنسان الحية والعقرب والسبع، فيتباعد عنها ويقتلها ويتباعد عن مظنة السباع، والله جبل الناس على الخوف مما يؤذي حتى يتحرز من ؛ يخاف البرد فيلبس الثياب الغليظة ... هذه أمور طبيعية لا بأس بها".

إن طلب النجاة بقدرة خفية غير محسوسة من غير الله، شركٌ أكبرٌ مخرج من الإسلام[١].
لأن هذا النوع من القدرة من خصائص الله-ﷻ-، ليست لأحد غيره[٢].

خلاصة هذه القاعدة:

لخص الشيخ صنع الله الحنفي[٣]-فيما نقله الشيخ سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب عن كتابه الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة[٤]- حيث قال:"إنه جل ذكره قرر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المنفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر، القادر على إيصال الخير. فهو المنفرد بذلك، فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبي وولي. والاستغاثة بغيره سبحانه إنما تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال، أو إدراك عدو، أو سبع أو نحوه، كقولهم: يا لزيد، يا للمسلمين، بحسب الأفعال الظاهرة. وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير، أو في الأمور المعنوية من الشدائد: كالمرض، وخوف الغرق، والضيق، والفقر، وطلب الرزق ونحوه، فمن خصائص الله لا يطلب فيها غيره"[٥].

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية:" هؤلاء الذين يعتقدون أن القبور تنفعهم، وتدفع البلاء عنهم؛ قد اتخذوها أوثانا من دون الله، وصاروا يظنون فيها ما يظنه أهل الأوثان في أوثانهم؛ فإنهم كانوا يرجونها ويخافونها ويظنون أنها تنفع وتضر"[الرد على الأخنائي ص٥٦].

(٢) ما يكون في السحر والعين، فهو ليس بقدرة خفية بحتة، بل له مقدمات محسوسة ، ثم هو لا يؤثر إلا بإذن الله، كما نص القرآن على ذلك في قول الله سبحانه عن السحرة:"وما هم بضارين به من أحدٍ إلا بإذن لله" [البقرة:١٠٢].

(٣) صنع الله الحلبي (٠٠٠ - ١١٢٠ هـ) صنع الله بن صنع الله الحلبي، المكي، الحنفي. واعظ، فقيه، محدث، أديب.له أرجوزة في الحديث، وسيف الله على من كذب على أولياء الله، وإكسير التقى في شرح الملتقى[انظر: معجم المؤلفين٥/٢٤].

(٤) اسم الكتاب: سيف الله على من كذب على أولياء الله. توجد منه مخطوطة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، برقم حفظ: ب ١٠٣١٩-١٠٣٢٠.

(٥) الدرر السنية١٢/٩٨.

وإذا تبين ما سبق عُلِم أن من طلب من قبرٍ أو ولي أو عالمٍ- سواء كان حياً أو ميتاً- أن ينجيه من ضرر كالعمى أو الصمم أو غيرهما، بقدرة خفية لا بالأسباب المحسوسة، أنه مخطئ، ولن يحصل على النجاة التي أرادها من هذا الطريق.